

المكتبة الثقافية

٥٠

حركات التسلل ضد القومية العربية

الدكتور إبراهيم صمد العدي

وزارة
الثقافة والإعلام
الإدارة العامة للثقافة



per un'occasione di lettura

Biblioteca Alexandrina

أول ديسمبر ١٩٦١

حركات الدتلل
ضد القومية العربية
الدكتور ابراهيم العدي

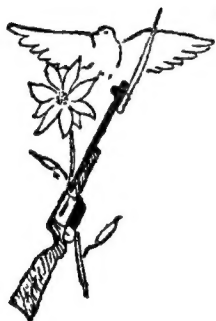
وزارة
الثقافة والإعلام
الإدارة العامة للثقافة

الناشر



١٨ شارع سوق التوفيقية بالقاهرة

ت ٥٥٠٣٢ — ٧٧٧٤١



سنكافح دائماً من أجل .
تثبيت القومية العربية ومن أجل
تثبيت الحرية العربية
إننا حينما ننادى بالقومية العربية
إنما نبني وطناً عربياً يتعاون فيه
الجميع من أجل الجميع ومن أجل
السلام .

جمال عبدالناصر

هذا الكتاب إلى تصوير حركات التسلل الكبرى التي هاجمت القومية العربية ، منذ فجر تاريخها إلى الوقت الحاضر ، وكيف تحطمت تلك الحركات على صخرة هذه القومية الخالدة ، بفضل يقظة أبنائها وسهرهم على حمايتها .

وبدأت الحركات الأولى للتسلل ضد القومية العربية من فارس ، حيث يستعرض الفصل الأول مراكزها في تلك البلاد والدوافع علي نشاطها . وتلوت تلك الحركات المبكرة بألوان عديدة سياسية ، وعقائدية ، واجتماعية ، ولكنها باءت كلها بالفشل على نحو ما تصوره الفصول : الثاني والثالث والرابع على التوالي ، لأن سلامة بناء القومية العربية وتضامن أبنائها ، رد كل تلك الحركات على أعقابها مدحورة .

وقد استخدمت في العرض التاريخي للحركات السالفة معنى القومية العربية للدلالة على المصطلحات القديمة التي رددتها المراجع ، مثل العنصر العربي أو العرب . إذ كلمة القومية العربية اليوم ترادف تماما المصطلحات القديمة معنى ومبنى .

أما الفصل الخامس والأخير ، فيستعرض التسلسل
الاستعماري ، الذي تستهدف الصهيونية منه في الوقت الحاضر
إحياء الحركات الفاشلة الماضية ، دون أن تأخذ لنفسها عظة
وعبرة منها ، شأنها في ذلك شأن الحاقد الذي تعمى قلبه وبصره
المطامع والنزوات .

ويلبس القارئ لهذا الكتاب أن نهاية هذه الحركة الأخيرة
قائم محزن لا محالة ، سواء للقائمين بها أو العاملين عليها ، شأن
قريناتها من الحركات القديمة . أما القومية العربية فإنها تزداد
منعة وقوة من جهادها ضد تلك الحركات ، وتمضي قدما في
سبيل تحقيق رسالتها الخالدة من اجل الاحتفاظ بسلام الإنسانية
وحضارتها .

إبراهيم أحمد العدوي



مراكز التسلسل عند القومية العربية

دار العرب :

العرب بناء راسخ الأوتاد ، يمتد من الخليج العربي شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا ، ومن جبال طوروس شمالا إلى قلب إفريقية جنوبا . ونشأ أبناء هذه الدار في ظل قومية متينة ، وضع أساسها وحدد معالمها الرسول العربي الكريم في قوله : « ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما هي اللسان ، فمن تكلمم العربية فهو عربي » . فصار كل فرد في هذه الدار يجد في لسانه العربي الجديد نسبا يعوضه أصهاره القدامى ، وقومية تجعله يقف مع إخوانه صفا واحدا كأنهم ببيان مرصوص .

وتولى حراسة هذه القومية تقاليد عريقة توارثها أبناء الأمة العربية عن أجدادهم الأول ، وغدت على مرّ العصور ، السلاح

الماضى الذى يدافع عن مقدساتها وسلامتها . وأول تلك التقاليد
اعتزاز الفرد بعروبته ، لأنها العنصر الأساسى فى تكوين
شخصيته وبقائها محترمة مهابة عند جيرانها . فسرت فى نفس
كل عربى روح القومية العربية التى عبّر عنها فى ثقة عالية منذ
عصر مبكر ، النعمان الثالث ، ملك الحيرة العربى حين وصف
لكسرى الفرس فضائل أمته ، فقال :

« أيها الملك ، أى أمة تقرنها بالعرب الا فضلها بعزّها
ومنعها ، وحسن وجوها وبأسها وسخائها وحكمة ألسنتها
وشدة عقولها وأفتها ووقائها والعرب لم ينلهم نائل ،
حصونهم ظهور خيولهم ، ومهادهم الأرض ، وسقوفهم السماء ،
وجنتهم السيوف ، وعدتهم الصبر ، إذ غيرها من الأمم ، إما
عزها الحجارة والطين وجزائر البحور . » فما زالت الروح
المعنوية التى ضمتها القومية العربية ، على النحو الذى شرحه
هذا الزعيم العربى ، تقف فى وجه قوى الظلم والظلم ، وتحفظ
للأمة العربية مقوماتها وعزّها .

ودعّم هذا الخلق الرفيع الذى استندت إليه القومية العربية
التقليد الثانى الذى تلقنه كل عربى منذ نعومة أظفاره ،
وهو الوفاء بالوعد وعدم الخنث به . مهما بذل فى سبيل ذلك

من تضحيات . فورث العرب تلك الحصلة الحميدة عن آبائهم الأول ، إذ كان الفرد منهم يدافع عن أرض قبيلته التي أطلق عليها اسم « الحمى » . فلم يجرؤ انسان علي اجتياز هذا الحمي دون عقد العهود والمواثيق مع العرب لينال بذلك مساعدته في ميدان التجارة والاقتصاد . وامتد هذا الحمي بامتداد القومية العربية ، وصار أتباعها يدافعون عنها بالحماسة نفسها التي دافع بها العربي الأول عن حمى قبيلته .

وأضافت الأحداث التاريخية قوة جديدة إلى القومية العربية ، ذلك أن الرسول العربي الكريم وضع لأتباعه دستورا صريحا ينصّ على : أن المؤمنين يبيي بعضهم على بعض بما نال دماؤهم في سبيل الله . فأصبح كل عربي مسئولا ، بمقتضى الدستور السالف ، مسئولية شرعية عن حماية أخيه العربي . وكلما اتسعت دار العرب امتدت تلك الحماية ، وصارت شعار القومية العربية من الخليج العربي شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا ، إذ نادى كل عربي في تلك الرقعة الكبرى بأنه مسئول عن حماية أخيه مهما بعدت به الشقة .

وبذلك انزوت في هذا البناء العربي الجديد القوميات القديمة ، وظهرت مكانها القومية العربية الواحدة ، لا مجال فيها للذكريات

القديمة التي تثير الأحقاد والمنازعات ، وإنما السبيل فيها واسع
للعمل من أجل المستقبل ، والتعاون على ما فيه صالح أمتهم .
وأنجبت القومية العربية قادة عظاما سجلوا أثمانهم في ميدان
الدفع عنها وحراسة دارها ، وأصبحت سيرة كل بطل منهم ،
مهما كان موطنه من الخليج العربي شرقا إلى المحيط الأطلسي
غربا ، موضع إعجاب الجميع وتقديرهم ، لأنه ابن لهذه الأمة
العربية الجديدة التي لا تفرق في محبتها بين أحد من أبنائها .

وبهرت القومية العربية أبصار العالم المجاور لها برسالتها
الإنسانية السامية ، ذلك أن العرب لم يعرفوا تعصبا عنصريا ،
أو تفرقة لونية أو ثقافية ، وأثبتوا للعالم أجمع أنهم رسل هداية
وسلام . ثم إنهم بسطوا أيديهم لكل من يريد التعاون معهم
في خدمة الحضارة الإنسانية ، أما من يتخونهم أو يعمل
علي خداعهم فلن يستطيع التماهى في غيّه ، لأن صفاء جوهر
القومية العربية ينبذ في سرعة خاطفة هذا اللون من الانحراف ،
ويزيد من منة تلك القومية وجلدها علي مواجهة الشدائد
وصعاب الأمور .

مراكز النسل :

وفي الوقت الذي كانت القومية العربية تحتاز فيه مرحلة الانصهار والتطور ، وتعمل على أداء رسالتها في خدمة البشرية ، بدأت حركات النسل تهاجمها ، مستهدفة حرمانها من الازدهار والنمو ، ومنعها من تثبيت أقدامها ، شأن المطامع الاستعمارية التي تحارب دائماً أصحاب الرسائل الإنسانية . ذلك أنه جاور دار العرب جهات لم يفهم أهلها حقيقة القومية العربية ، واعتبروا انتصارها في منطقة شاسعة — تمتد من الخليج العربي شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً — نوعاً من السيادة العنصرية ، وأن الأمر يقتضي محاربة تلك القومية قبل أن تستقر أوتادها .

وتعرف هذه الحركة التي نظرت إلى القومية العربية بعين ملؤها الحقد والكراهية باسم «الشعوية» ، وهي تسمية مشتقة من الشعوب ، أي العودة إلى ماضى الشعوب والتفاخر بعصبيتها الجغرافية والتاريخية ، وبذ رسالة العرب التي تهدف إلى خلق مجتمع جديد قوامه : أن التشبث بالماضى والبكاء على أطلاله ودمنه لن يجدي شيئاً غير إثارة الأحقاد المريعة التي لا طائل

من ورائها وأن من خير البشرية أن تسود المساواة للجميع ،
 وأن يتعامل الناس على أساس تبادل المنافع واحترام الحقوق .
 واتخذت هذه الحركة العدائية الأولى للعرب وقوميتهم
 مراكز لها في فارس على الباب الشرقي لدار العرب . ذلك أن
 الفرس حقدوا على القومية العربية لنجاحها في تأليف قلوب
 شعوب شتى ، وكرهوا السلطان الذي آل للعرب ، مثلاً في دولة
 شاسعة خضعت لها بلاد فارس نفسها . فطل الفرس يتمسكون
 بماضهم البائد ، وتملاً الحشرات قلوبهم على ضياع مجدهم السياسي ،
 وأبوا الاستجابة لسياسة المودة التي سعى بها إليهم خلفاء الأمة
 العربية ورجال السلطان فيها . ذلك أن العرب أطلقوا على الفرس
 اسم « الموالي » ، وهو لقب حمل عندهم أعظم المعاني وأسمائها .
 فالموالي عند العربي هم حلفاؤه وورثته من بني عمومته وإخوته
 وسائر عصبه ، أي أنهم عصبية المرء التي بها يحتمى ويعتز .
 ولما قامت الدولة العربية دأب الخلفاء الراشدون على تقريب
 الموالي إليهم ، وإتاحة كل الفرص أمامهم للتعاون مع الأمة
 العربية والتمتع بسلطانها وحمايتها . وتاج خلفاء بني أمية من
 عاصمتهم دمشق سياسة الحسنى في معاملة الموالي ، وتوسعوا
 في إلحاقهم بشتى المناصب الإدارية والعلمية والعسكرية ، دون أية

تفرقة بينهم وبين العرب ، أملا في توثيق أو اصر الروابط والمحبة بينهم وبين القومية العربية .

غير أن الفرس لم يقدرُوا للأمة العربية رحابة صدرها ، ولم يفهموا رسالتها الإنسانية ، وصرفوا جهودهم في محاربتها وعرقلة نشاطها . ولجأ الفرس في عدائهم إلى أساليب التسلل ، أى تجنب الاشتباك مع العرب في معارك مكشوفة ، وابتهاز الفرص المواتية للغدر بهم والحتل . وجاء هذا اللون من العداء نتيجة قوة القومية العربية وسلامة بنائها وحبها للعمل بعيداً عن الظلام . فلم يجد أعداؤها أخطاء لها يمكنهم استغلالها ، أو هئات تخول لهم الخروج على تعاليمها . وجرت حركات التسلل الفارسي ضد القومية العربية على مرحلتين ، إحداهما اختفوا فيها وراء المناداة بدعاو سلمية مزيفة ، وشعارات خادعة ، أشبه بوضع السم في العسل . والأخرى لجأوا فيها إلى الجهر بآرائهم ، والاستناد إلى العنف ، إذا ما آنسوا من أنفسهم قوة ، أو وجدوا ثغرة مواتية تتيح لهم الهجوم منها . ولم يقم بين هاتين المرحلتين حد فاصل ، وإنما جرت حركات التسلل فيهما حسباً أملت الظروف ، أو اقتضته الأوضاع والمناسبات .

وأقبل الفرس على تعلم اللغة العربية ليدرسوا عن طريقها

سرّ قوة أصحابها ، وليسهل عليهم الاندساس بينهم ، ونشر
دسائسهم وأغراضهم الهدامة . وتولى نفر من علماء الفرس قيادة
حركات التسلل المبكرة ضد القومية العربية ، دون أن يقدسوا
الأمانة العلمية . وتجلّت طلائع تسللهم في تزييف التاريخ
والالتجاء إلى المعالطات العلمية . ومن ذلك أنهم لجأوا إلى
مقارنة ماضى الأمة العربية في العصر الجاهلى بما عاصرها إذ ذاك
من الأمم . وتمخضت أعمال بعضهم عن وضع كتب حشوها
بالأكاذيب وأطلقوا عليها اسم مثالب العرب . وحاول هذا النفر
من المتسللين العلماء صرف الناس عن الاعتزاز بعروبهم ، نتيجة
رواج تلك الكتب الزائفة التي وضعوها باللغة العربية . إذ رأوا
في إقبال الناس على قراءة كتبهم سبيلا للتسلل ضد القومية العربية
واليل منها . وبدأت هذه الكتب الزائفة تنتشر وتتسلل تحت
ستار النهضة العلمية والأدبية التي سادت أرجاء الدولة العربية .
وبدأت مراكز التسلل في فارس نشاطها منذ عهد مبكر ،
مستغلة الأحزاب السياسية التي ظهرت في الدولة العربية ، ذلك
أنه أعقب وفاة الخليفة : عثمان بن عفان ، وما تلا مصرعه من نزاع
بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان ، قيام ثلاثة أحزاب
سياسية ، هى الحوارج الذين انشقوا على طاعة على بن أبى طالب ،

والشيعة الذين أيدوا علي بن أبي طالب وأولاده من بعده ،
والمرجئة الذين وقفوا على الحياد من أحداث النزاع بين الحزبين
السالفين وأرجأوا الحكم عليهما إلى يوم القيامة ، إلى الله سبحانه
وتعالى . فأخذ الفرس يتسللون بين تلك الأحزاب بتوسيع شقة
الخلاف بين الأطراف المتنازعة تارة ، وبإثارة الريبة في النفوس
عندما تطهر في الأفق المساعي الحميدة لإصلاح ذات البين وتوحيد
الصف العربي .

وتأثر قادة الخوارج بسموم دعاة التسلل الفارسي بعد أن
لجأوا إلى فارس عقب الهزائم التي حلت بهم على يد علي
بن أبي طالب . فقال الخوارج : إن الخلافة لا يجب أن تقتصر
على العرب ، وفتحوا بذلك ثغرة أمام أعداء القومية العربية
للتسلل وتحقيق مآربهم الفاسدة . وفي الوقت نفسه وجدت
حركات التسلل عُنسها الأمين في حزب الشيعة ، إذ بدأ الفرس
يُروجون نظرية الشيعة القائلة : إن الخلافة يجب أن تنحصر
في بيت علي بن أبي طالب ، وأضافوا عليها من خيالهم الفارسي
ما جعلها ستارا يتسللون وراءه ضد الأمة العربية . ولم تَنجُ
للمرجئة نفسها من حركات التسلل ، على الرغم من مبادئها
السلمية ، إذ استطاع قادة تلك الحركات أن يجرفوا المرجئة أمام

تبارهم الفاسد ، باستغلال تقوى أنصار هذا الحزب ، واستدراار عطفهم بالشعارات الزائفة ، والالتجاء إليهم فى وقت الأزمات باعتبارهم حماة الضعفاء والمظلومين . وكان وقوع أولئك الأتقياء فى حبائل حركات التسلل أخطر ثغرة واجهتها القومية العربية . إذ اقضى الأمر مجهودا شاقا لتبصرة هذا النفر من أبناء الأمة العربية بالسموم التى تختفى وراء احتضانهم لدعاوى الفرس الزائفة . ولم يدرك أولئك الأتقياء أخطار الشراك التى وقعوا فيها إلا بعد فوات الأوان ، وبعد أن أفلت زمام الأمر كذلك من أيديهم . وصار الموقف يقتضى اليقظة والحزم فى محاربة مراكز التسلل ، والعمل على اكشاف الرؤوس للشرفة عليها ، وحماية القومية العربية من عمومها وشرها .

مراقبة مراكز التسلل

إفافة أولى الأمر من العرب :

كان خلفاء البيت الأموى فى دمشق أول من أحس خطر التيار المتدفق من مراكز التسلل الفارسى ، وبادروا باتخاذ الوسائل الفعالة لإيقافه وهدم نشاطه . ذلك أن أبناء هذا البيت ينتمون إلى الأصول العربية التى تدرك بفطرتها السليمة مصادر

الخطر التي تهددها قبل انطلاقها من معاقها ، وتعمل في سرعة وحزم على وأدها وهي في مهدها . ثم إن الأمويين لمسوا بأنفسهم أثناء جهادهم من أجل الحصول علي الخلافة تسلل الفرس ضد الأمة العربية عن طريق الانضمام إلى الأحزاب السياسية ، ووقفوا علي الكثير من أساليبهم الملتوية الخادعة .

ووقف الأمويون بالمرصاد لهذه الحركات التسليية ، وبدأوا يراقبون الفرس الذين التحقوا بمناصب الدولة العربية ، وضرب كل من يخون الأمانة التي عهدت بها إليهم السلطات العربية . وتطلب الأمر يقظة كاملة ، لأن نفرا من أولئك العمال الفرس أجاد إذ ذاك ، اللغة العربية ، وصار يعبر بها تعبيرا دقيقا عن آرائه ويضمنها أغراضه للعادية للقومية العربية . ولكن الخلفاء الأمويين كشفوا في سرعة مذهشة ما يأتي بين سطور العمال الفرس ، وأخذوا يحاسبونهم عليها حسابا عسيرا ، حماية للأمة العربية ووطنها .

وتجلى نجاح الأمويين في صد طلائع حركات التسلل ضد القومية العربية في مراقبة الشعراء الفرس الذين وفدوا على بلاطهم وألقوا القصائد العديدة في حضرته . فالأمويون جروا على التقاليد العربية في تشجيع الشعراء والأدباء ، وإغداق العطايا

والهبات على المجيد منهم ، ولا سيما من تحقق أعماله الأدبية خدمات
جليلة للغة العربية ورفَّع شأنها . واشتهر في بلاط الأمويين
في دمشق شاعر فارسي اسمه : إسماعيل بن يسار ، حيث لقي
من الخلفاء كل ترحيب وإكرام . ولكن هذا الشاعر لم يحفظ
للسلطيات العربية حسن معاملتها له ، ولم ينس حقه وأصله الفارسي
وبدأ يتحين الفرص المواتية ليتسلل ضد القومية العربية . ودأب
يعلم في مجالسه السرية كراهيته للعرب ، وليت مروان ، وهو
الفرع الأموي الحاكم في دمشق إذ ذاك . فقال مرة لبعض جلسائه
من الفرس : إني أبغض آل مروان ، وإن « امرأتى طالق
إن لم تكن آمي تلعن مروان وآله كل يوم مكان التسبيح ،
وإذا حضر أبي الموت ، وقيل له : قل لا إله إلا الله ، لقال : لعن
الله مروان ، تقربا بذلك إلى الله تعالى ، وإبداله من التوحيد » .
وهكذا دأب هذا الفارسي على تلقين مواطنيه كراهية
العرب ، والحط من شأن خلفائهم ، وذلك دون أن يُقدَّر
ما أسبغه أولئك الخلفاء عليه من عطف وتشجيع ورعاية .
وصارت شخصية إسماعيل بن يسار نموذجا لهذا التسلل المبكر
ضد القومية العربية ، إذ رأى الفرس في تقلُّد الناصب في الدولة
العربية سبيلا يتيح لهم أن يدرسوا عن كثب سرَّ قوة هذه الأمة

آملين أن يرسموا الخطط الكفيلة بتحقيق ما يريهم ضدها .
ولم يلبث إسماعيل بن يسار أن تمادى فى تسالنه ، وعمد إلى
التغنى بمجد الفرس القديم ، مستهدفا النيل بطريق غير مباشر
من القومية العربية . فالتقى فى حضرة الحليفة هشام بن عبد الملك
قصيدة ملاءها بذكرى العصيات القديمة التى قضت عليها الأمة
العربية ، ومحاولا إعادة الأحقاد المريعة المدفونة ، فقال :

أصلى كريم ومجدى لا يقاس به

ولى لسان كحد السيف مسموم
من مثل كسرى وسابور الجنود معا

والمرمزان لفخر أو لتعظيم
أسد الكتاب يوم الروع إن زحفوا
وهم أذلُّوا ملوك الترك والروم
هناك إن تسألنى تُنْشِئَ بأن لنا

جرثومة قهرت عزَّ الجرائم

وأدرك الحليفة العربى هذه النزعة التسالية فى قصيدة إسماعيل
ابن يسار ، وعرف مراميها التى تخالف مبادئ القومية العربية
التي تنادى بأن ليس للعرء إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ،
وأن الماضى والتمسك به لا يجدي المرء شيئا . ثم إن الحليفة غضب

من محاولة ذلك الشاعر للتعريض بالقومية العربية ، وقال له :
« أياي تنشد قصيدة تمدح بها نفسك وقومك ؟ » . ثم أمر حرسه
بأن يغطوه في بركة بالقصر بها ماء حتى كادت أنفاسه تزهق .
وجرياً على سياسة الأمة العربية المتسامحة ، اكتفى الحليفة بهذا
العقاب الذي قصد منه زجر كل من يحاول التسلل ، وأبقى
على حياة إسماعيل بن يسار ، لعله يهتدى ويهدي بني قومه .

حراسة إقليم العراق :

ورأى الأمويون أن سياسة مراقبة مراكز التسلل تقتضى
حراسة إقليم العراق لأنه يمثل البوابة الشرقية لدار العرب ، والتي
تجاور مباشرة مراكز التسلل الفارسي . وقام في إقليم العراق
إذ ذاك مدينتان هامتان ، هما البصرة والكوفة ، عمدة الفرس
إلى اتخاذها سبيلاً للتسلل ضد الأمة العربية . ذلك أن هاتين
المدينتين حفلتا بأعداد وافرة من الجاليات الفارسية نظراً لقربهما
من فارس ، ولشهرتهما في ميدان الحياة السياسية والاقتصادية
للدولة العربية . فكانت البصرة ميناء هاماً تآتى إليه وفود شتى
من مختلف البلاد مما يسهل على دعاة التسلل التخفي والاندساس
بين صفوف العرب . أما الكوفة فكانت مركزاً سياسياً عظيماً
منذ اتخذها علي بن أبي طالب مقراً له ، وصارت بعد اغتياله
مسرحاً صالحاً لانطلاق حركات التسلل الفارسي .

ولكن باستنباب الأمر للأمويين في حكم الدولة العربية بدأت سياسة حارمة لحراسة إقليم العراق ، وسد الثغرات فيه أمام حركات التسلل المعادية للأمة العربية . وتولي الطليعة من حراس العراق نفر من خيرة رجال العرب ، ممن آمنوا بإيماناً صادقاً بقوميتهم العربية ، وعرفوا أمثل السبل لحمايتها والسير بها في طريق العز والفلاح . ومن هؤلاء الحراس العرب : زياد ابن أبيه ، الذي ولى شئون البصرة سنة ٤٥ هـ / ٦٦٥ م . وكانت تلك المدينة حين قدمها زياد مسرحاً لدعاة التسلل ، الذين عملوا إذ ذاك على بذر بذور الشقاق بين العرب ، ليصبح الطريق مهيباً أمامهم لتحقيق مفسدهم دون خوف أو وجل .

ورأى زياد بن أبيه أن الموقف يقتضى نشر الهدوء والسكينة في البلاد ، حتى لا يجد دعاة التسلل ضد الأمة العربية سبيلاً للعمل . وأعلن عن تلك السياسة في خطبة ألقاها من على المنبر ، دون أن يبدأها بالحمد والتسليم جرياً على التقليد المتبع إذ ذاك في الخطب ، مما جعل خطبته تعرف باسم « البتراء » وقال فيها : « أما بعد ، فإن الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء ، والغى الموفى بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم ، واشتمل عليه حلاماؤكم من الأمور العظام ، ينبت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ،

كَأَن لَّمْ تَسْمَعُوا بَأَى اللَّهِ قُرْبَتِ الْقَرَابَةِ ، وَبَاعَدْتُمْ الدِّينَ ،
تَعْتَذِرُونَ بِغَيْرِ الْعَذْرِ ، وَتَغْضُونَ عَلَى الْخَتْلِ . كُلُّ أَمْرٍ مِنْكُمْ
يَذُبُّ عَنْ سَفِيهِهِ ، صَنِيعٌ مَنْ لَا يَخَافُ عَاقِبَةَ وَلَا يَرْجُو مُعَادَاً . . .
حَرَامٌ عَلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ حَتَّى أَسْوِيَهَا بِالْأَرْضِ هَدْمًا وَإِحْرَاقًا .
إِنِّي رَأَيْتُ آخِرَ هَذَا الْأَمْرِ لَا يَصْلُحُ إِلَّا بِمَا صُلِحَ بِهِ أَوَّلُهُ : لِيَنْ
فِي غَيْرِ ضَعْفٍ ، وَشِدَّةٍ فِي غَيْرِ عُنْفٍ . وَلَأُقْسِمَ بِاللَّهِ لَا أَخْذَنُ الْوَلِيَّ
بِالْوَلِيِّ ، وَالْمَقِيمَ بِالطَّاعِنِ ، وَالْمَقْبِلَ بِالْمُدْبِرِ ، وَالْمَطِيعَ بِالْعَاصِي ،
وَالصَّحِيحَ مِنْكُمْ فِي نَفْسِهِ بِالسَّقِيمِ ، حَتَّى يَلْقَى الرَّجُلُ مِنْكُمْ أَخَاهُ
فَيَقُولُ : ائْتِ سَعْدٌ فَقَدْ هَلَكَ سَعِيدٌ ، أَوْ تَسْتَقِيمُ قَنَاتِكُمْ

« وَإِيَّايَ وَدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ ، فَإِنِّي لَا أَجِدُ أَحَدًا دَعَا بِهَا إِلَّا
قَطَعْتَ لِسَانَهُ . وَقَدْ أَحْدَثْتُمْ أَحْدَاثًا لَمْ تَكُنْ ، وَقَدْ أَحْدَثْنَا لِكُلِّ
ذَنْبٍ عَقُوبَةً ، فَمَنْ غَرِقَ قَوْمًا غَرَقَاهُ ، وَمَنْ أَحْرَقَ قَوْمًا أَحْرَقَاهُ ،
وَمَنْ نَقَبَ قَوْمًا نَقَبْنَا عَنْ قَلْبِهِ ، وَمَنْ نَبَشَ قَبْرًا دَفَنَاهُ فِيهِ حَيًّا .
فَكُفُّوا عَنِ أَيْدِيكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ ، أَكْفَفْ عَنْكُمْ يَدِي وَلِسَانِي . »
وَكَانَ لَهُدَاهُ الْخَطْبَةُ الْعَنِيفَةُ أَثَرَهَا الْبَالِغُ فِي نَفُوسِ أَهْلِ
الْبَصْرَةِ ، الَّذِينَ جَنَحُوا إِلَى الْهَدْوِ وَالسَّكِينَةِ ، وَبِذَلِكَ فَقَدْ دَعَا
التَّسْلِيلَ الْفَارِسِيَّ أَسْبَابَ الْعَمَلِ ، وَآثَرُوا بِدَوْرِهِمْ إِخْفَاءَ رُؤُوسِهِمْ
أَمَامَ بَطْشِ هَذَا الْحَارِسِ الْعَرَبِيِّ الْأَمِينِ . وَظَلَّتْ بِلَادُ الْعِرَاقِ طَيِّبَةً

حكم زياد بن أبيه تنعم بالهدوء ، وبإدارة حازمة تقبض بعضى
من حديد اللبطش بكل من ينفى التسلسل أو الإفساد .
وتابع سياسة حراسة إقليم العراق حاكم آخر لا يقل غيرةً
على الأمة العربية عن زياد بن أبيه ، وهو الحجاج بن يوسف
الثقفى ، الذى خلّده التاريخ العربى أروع الصفحات فى تلك
السبيل . وقَدِمَ هذا الحارس الجديد إلى بلاد العراق سنة ٧٥
هـ/ ٦٩٥ م ؛ بعد ثورة اندلعت فيها ضد الأمويين ، وعمدت حركات
التسلسل إلى استغلالها كذلك لمهاجمة القومية العربية . واتجه
الحجاج إلى الكوفة ، مهد الفتن السياسية ، متخفياً ليفاجئ
رؤوس الشغب والتسلسل بها . فعندما اعتلى المبركان مثلثاً ، وبقي
مدة لا يتكلم ، واضعاً إيهامه على فيه . فَظَنُّ الحاضرون أنه
ضعيف ، وهتف به أحدهم قائلاً : ترّحه الله ، ماله لا يتكلم ،
ما أعياء وأشناء وأدمّه ، ثم أخذ كفاً من حصي ليقذف به
الحجاج . وعندئذ قام هذا العربى المهام ، وخطب أهل العراق
خطبته الشهيرة ، التى استهلها بكشف القناع عن وجهه قائلاً .
أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفونى
ثم أعلن الحجاج فى خطابه سياسته الحازمة فى حراسة إقليم
العراق ، وأنه سوف يضرب فى شدة على محبى الشغب ، حتى

لا يجد أعداء الأمة العربية سبيلا للتسلل عن طريقهم . فقال :
« إن أمير المؤمنين عبد الملك ، نثر كنانته ، ثم عجم عيدانها ،
فوجدني أمرها عودا ، وأصلها مكسرا ، فرماكم بي ،
فإنكم طالما أوضعتم في الفتن ، وسنتم سنن الغي . . . والله
لتستقيم على سبل الحق ، أو لأدعن لكل رجل منكم شهلا
في جسده . . . » وبذلك تبين لأهل العراق أن الحارس العربي
الجديد ليس عيبا ولا ضعيفا ، وأخذ الحصى يتساقط من يد
الرجل الذي أراد أن يقذف به الحجاج ، كلما استمر هذا العربي
الحازم في كلامه ، وشرح سياسته .

واستهل الحجاج أعماله بإيقاف تيار الفرس المتدفق على مدن
العراق حتى يحول بين تسلل المفسدين منهم وبين تحقيق
مآربهم . ثم إن هذا الحاكم العربي رأي في تلك السبيل عاملا
يحافظ على انتظام الأحوال الاقتصادية في فارس نفسها ، لأن
المتسللين وجدوا في الحرب من مدهم خلاصا من التزاماتهم
المالية . وكشف دعاة التسلل عن نواياهم إزاء سياسة الحجاج
حين اجتمعوا خارج البصرة ، وأخذوا يكون ويندبون ،
استدراارا لعطف الأتقياء العرب ، الذين لم يتمكنوا بسرعة من
اكتشاف تلك الحركات التسللية الخطيرة .

وساء الموقف في العراق ، لأن تلك الحركة تحولت إلى ثورة كبرى ، نادى فيها المتسللون بعزل الحجاج والخليفة نفسه . واستطاع الحجاج بعد مجهودات شاقة إخماد تلك الثورة ، التي جاءت بمثابة الطليعة لحركات التسلل من المراكز الفارسية ، وأثبت بصورة عملية أنه قد اجتاز هذا الامتحان القاسى فى سبيل دفاعه عن الأمة العربية ، وحراسة إقليم العراق . ثم صمم الحجاج بعد ذلك على تشتيت الجماعات الفارسية التي تتسللت إلى مدن العراق بعد أن تبين بشكل لا يقبل الشك أنهم صاروا يشكلون خطرا على الباب الشرقى لدار العرب . فأعاد العمال الفرس وغيرهم ممن تسلل تحت ستارهم إلى بلادهم ، وأقر بذلك الأمن والطمأنينة فى العراق .

وهكذا سد الحجاج الثغرة التي عمدت حركات التسلل إلى الاستفادة منها فى إقليم العراق ، وظلت القومية العربية مهابة لا تجد ما يعكر سلطانها طيلة العصر الأموي .

الفصل الثاني

مركات التسلل الساساني

(١) الراوندية

أصول الراوندية :

بعد أن أعاد الحجاج الفرس إلى بلادهم ، لجأ قادة التسلل منهم إلى إقليم خراسان بالشمال العربي من فارس ، ليكونوا بعماء عن سطوة هذا الحارس العربي وبطشه . وفي ذلك الوقت وقعت أحداث في الدولة العربية وجد فيها أنصار التسلل فرصة مواتية للنيل من القومية العربية . إذ نظم العباسيون دعوة سرية لانتزاع الخلافة من الأمويين ، واتجهوا إلى إقليم خراسان لاستغلال سخط الفرس هناك ضد الأمويين . وانضم إلى العباسيين شخصية فارسية خطيرة ، هو أبو مسلم الخراساني والذي وجدت حركات التسلل فيه ميداناً خصبا لنشاطها وتحقيق مآربها .

واستهل هذا الداعي الفارسي اعماله بتفرقة الصف العربي في خراسان ، لأنه يعرف أن ذلك هو السبيل الوحيد لخدمة أغراضه . وأظهر أبو مسلم الحراساني نشاطا واسعا في تلك السبيل ، حتى إن قادة حركات التسلل انضوا تحت لوائه ، وساعدوه في مهامه . وأحس الحاكم العربي على خراسان من قبل الأمويين ، خطر هذه الحركات التسللية ، وبعث يحذر السلطات الأموية في دمشق منها ، فقال :

أرى بين الرماد وميض جمر ويوشك أن يكون له ضرام
فإن النار بالعودين تذكى وإن الحرب أولها الكلام
أقول من التعجب ليت شعري : أيقاظ أمية أم نيام
فإن يك قومنا أضحوا نياما فقل قوموا فقد حان القيام
ففرّى عن رحالك ثم قولى على الإسلام والعرب السلام !
وكان هذا الحاكم العربي هو صربس سيار ، الذي ظلت أشعاره إلى اليوم تجرى على الألسنة والشفاه ، لتذكر العرب بأن سلامتهم ، وعزّة قوميتهم ، في التضامن والاتحاد ، وأن الفرقة سبيل لتسلل الأعداء ضدهم . فبعث إلى القبائل العربية في خراسان يحذرهما من المتسللين ، وأنهم ليسوا من الموالي المخلصين ، أى ليسوا من الفرس الذين حفظ بعضهم

للعرب حسن معاملتهم ، وظلوا علي الولاء لسلطانهم . وجري
نداء نصر بن سيار في عظة بليغة ، جاء فيها :

أبلغ ربيعة في مرو وإخوتها
أن يفضبوا قبل ألا ينفع الغضب
ما بالكم تلقحون الحرب بينكم
كأن أهل الحجى عن فعلكم غيب
وتتركون عدوا قد أظلكم
ممن تأشّب لا دين ولا حسب

ليسو إلى عرب منا ، فنعرفهم
ولا صميم الموالي ، إن هم نسبوا
قوم يدينون ديننا ما سمعت به
عن الرسول ، ولا جاءت به الكتب
فمن يكن سائلي عن أصل دينهم

فإن دينهم أن تقتل العرب
ولكن نداء نصر بن سيار ذهب أدراج الرياح ، مما مكّن لدعاة
التسلل أن يبدأوا أعمالهم . وظهرت أولى الحركات العدائية
إذ ذاك للأمة العربية ، وتعرف باسم الراوندية ، نسبة إلى مدينة
راوند القرية من أصفهان ، حيث اتخذت من تلك المدينة مقراً

لها . واشتد نشاط الراوندية أثناء الدعوة السرية للعباسيين في أواخر العصر الأموي ، وبدأ دعايتها يتسللون عن طريق الشخصيات العربية المناهضة للأمويين . وكان أخطر أساليبهم للتسلل ، هو ترويح المعتقدات الفارسية القديمة القائلة بحلول الروح ، وانتقالها من شخص إلى آخر . فقالوا إن الروح الإلهية انتقلت إلى علي بن أبي طالب وأبنائه من بعده ، حتى انتقلت أخيراً إلى أبي مسلم الخراساني ، حامل لواء العداء ضد الأمويين ، باعتبارهم رمز سلطان العرب .

هجوم الراوندية على العرب :

ولما سقط البيت الأموي وقام البيت العباسي ، ظن قادة الراوندية ، أن الجو صار خاليا لهم للنيل من الأمة العربية . ولكن انتقال الحكم إلى العباسيين لم يكن يعني أكثر من انتقال السلطان من بيت آخر لا يقل عنه غيرة علي العروبة وقوميتها . وتابعت السلطات العباسية مراقبة حركات التسلل والضرب على القائمين بها في عنف لا يقل عنه بطش الأمويين ، وفي غير شفقة أو هوادة . وفضلاً عن ذلك ، فإن العباسيين كانوا على علم تام بأغراض تلك الحركات منذ أيام دعوتهم السرية ضد الأمويين في خراسان .

وبدأت حركة الراوندية نشاطها السافر بعد ان امر
الحليفة : أبو جعفر المنصور العباسي بإعدام أبي مسلم الخرساني ،
الذي ثبت تأمره على الدولة العربية ، والذي حاول إنشاء دولة
فارسية له في موطنه خراسان . فأقبل الراوندية على نشر
مبهمهم بين الناس ، وذلك بأن يدعو كل فرد من الراوندية
الجماعة من الناس إلى منزله ، فيطعمهم ، ويسقيهم ويبيع لهم
ارتكاب المحرمات . ثم تمادت الراوندية في تسليها حين قال
أتباعها بأن الحليفة للنصور ، هو ربهم الأعلى الذي يطعمهم
ويسقيهم ، كما نادوا بأن روح آدم عليه السلام حلت في رئيس
حرس الحليفة ، وهو عثمان بن نهيك . واستهدف قادة الراوندية
بذلك تشويه سمعة الخلفاء العباسيين لدى العرب أنفسهم ،
وليجمعوا حولهم ، بإحياء هذه التقاليد الفارسية القديمة ، أكبر
عدد ممكن من الأنصار لضرب الأمة العربية عندما تسنح لهم
الفرص المواتية .

ودأب قادة الراوندية على إرسال جماعات منهم لتطوف حول
قصر للنصور في الهاشمية ، لأن بغداد لم تكن قد تأسست بعد ،
وتهدف قائلة : هذا هو قصر ربنا . وكان الهدف من ذلك
هو دراسة خطط الحراسة العربية حول القصر ، تمهيدا لمهاجمته
على حين غرة ، وقتل الحليفة المنصور الذي أطاح بأبي مسلم ،

رأس حركات التسلل ضد القومية العربية . ولكن المنصور العباسي أدرك أهداف هذه الحركة الخطيرة ، واستدعى مائتين من رؤسائها والتي بهم في السجن ، ثم أتبع تلك الخطوة الجريئة بإصدار أمر بلألا يتجمع الراوندية عند قصره ، أو يطوفوا حوله .

وعندئذ عرف قادة الراوندية أن السلطات العربية ساهرة يقظة ، وأنه لا بد من عمل سريع لإنقاذ إخوانهم المسجونين ، وضرب الخليفة العربي . وتمخضت مؤامرتهم عن خطة خبيثة خطيرة تكشف عن إجادتهم أساليب التسلل والغدر . إذ حمل نفر من الراوندية نعشا ليس به أحد ، وسار وراءه ستمائة من أتباعهم ، متظاهرين بالذهاب لدفه ، سالكين طرقا توصلهم إلى السجن الذي به زعمائهم ، حتى لا ينتبه إليهم أحد أو يدرك حقيقة أمرهم . وعندما بلغوا باب السجن رموا بالنعش ، وهجموا على السجن نفسه وأخرجوا زعماءهم منه .

وانتهجت جموع الراوندية بعد ذلك مباشرة إلى الهاشمية ، وحاصروا قصر الخلافة بها ، وحالوا بينه وبين أي اتصال بالقوات الموجودة في العاصمة نفسها . وحدث كل ذلك دون أن تدري المدينة شيئا ، مما يدل على مقدرة الراوندية في إخفاء خططها .

واحكم المهاجمون حلقة الحصار حول القصر ، وسدوا كل المسالك المؤدية إليه ، لأنهم كانوا على خبرة واسعة بكل ذلك ، نتيجة دراساتهم السرية السابقة . وكان قصر الخلافة يحتاج إلى حارس من الخارج ، يمكنه اكتشاف أي خطر يهدده قبل الاقتراب منه ، والاتصال بالقوات في خارجه .

الفناء على الراوندية :

وأظهر الخليفة المنصور ومن معه بداخل القصر ، روحا عالية على نحو ما تنصف به الشخصيات العربية وقت الأزمات . فلم يدب الخوف إلى قلوبهم أمام هذا الهجوم الخاطف الغادر ، وطلب الخليفة نفسه فرسه ليركبه ويتوجه مباشرة لحرب الراوندية . وحاول عثمان بن نهيك قائد حرس القصر ، والذي سبق أن نادى اتباع الراوندية بأن روح آدم حلت فيه ، ان يتفاهم معهم ، ولكنهم قذفوه بنشاب اصاب كتفه وتوفي بعد ذلك متأثرا بجراحه . ولم يفت ذلك في عضد حراس القصر ، على الرغم من قلة عددهم ، وهجموا على الراوندية هجوما باسلا ، مليئا بشتى مظاهر البطولة النادرة .

وفي هذا الوقت العصيب تجلّت قوة التضامن العربي ، الذي يبلغ

دائماً أوجه عند الشدائد . ذلك أن أحد قادة بني أمية ، وهو معن ابن زائدة ، وكان مخفياً من العباسيين ، نسي كل أحقاده ومخاوفه عندما تسرب إليه أخبار حصار الراوندية لقصر الخلافة ، وأسرع لنجدة الخليفة من أخطر حركة تسلل ، تبغى الحط من شأنه ، باعتباره رمز العرب وسلطانهم . وسأل الخليفة حاجيه عن الشخصية التي جاءت إلي القصر تعرض خدمتها . ف قيل له إنه : معن بن زائدة ، فقال الخليفة : رجل من العرب شديد النفس ، عالم بالحرب ، كريم الحسب ، وامر بإدخاله . فلما مَثَلَ مَعْنُ فِي حَضْرَةِ الْخَلِيفَةِ بَدَأَ يَتَدَارَسُ الْحُطُّطَ الْكَفِيلَةَ بِدَفْعِ خَطَرِ الرَّاوْنِدِيَةِ . وَقَالَ الْخَلِيفَةُ لِمَعْنُ : إِنْ الرَّأْيُ عِنْدِي أَنْ أُخْرِجَ مِنَ الْقَصْرِ حَتَّى يَرَانِي النَّاسُ ، وَيَجِدُوا بِذَلِكَ حِمَاةً لِلْهَجُومِ عَلَى الرَّاوْنِدِيَةِ ، أَمَا إِذَا أَقْبَتَ بِالْقَصْرِ تَحَاذَلُ النَّاسُ وَدَبَّ الْخَوْفُ إِلَى نَفُوسِهِمْ .

وحاول معن ونفر من رجال الخليفة منعه من تنفيذ هذا الرأي ، تفاديا من غدر الراوندية ، وسهامهم التي يغنون بها شخص الخليفة أولا وقبل كل شيء . ولكن للنصور العباسي أبي أن يَصْنَعَ بِشَخْصِيَّتِهِ فِي تِلْكَ الْمَرْحَلَةِ الْحَرْجَةَ ، وَرَغْبَ فِي أَنْ يَقْدِمَهَا قَرَابَانًا لِلدِّفَاعِ عَنِ الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَةِ . وَعِنْدَئِذٍ سَرَتْ مَوْجَةٌ رَائِعَةٌ

من الحماسة في نفوس الحراس العرب ، وبدأها معن بن زائدة
نفسه ، الذي توجه في جرأة نادرة نحو أحد رجال الراوندية ،
وأرداه صريعاً . وتتابع الهجوم على الراوندية في شجاعة
وعنف ، حتى إنه لم تتجاوز الساعة حتى فنيَ عدد كبير منهم
وولى الباكون الأدبار .

واختفى معن بن زائدة بعد أن تم النصر للعرب ، ورأى
أن مهادته قد انتهت . فكلف أبو جعفر المنصور أحد خاصته
بالبحث عن معن ، وقال له ، اذهب وأعطه الأمان وأدخله على .
وعندما جاء معن تلطّف معه الخليفة ، وأخذ يشيد ببطولته بين
الحاضرين قائلاً لكبيرهم : أسمعت بأسد الرجال . . . لو رأيت
مَعْنًا علمت أنه من تلك الآساد . فأجاب معن قائلاً : « والله
يا أمير المؤمنين ، لقد أتيتك وإني لوجل القلب ، فلما رأيت
ما عندك من الاستهانة بالراوندية وشدة الأقدام عليهم ، رأيت
أمرًا لم أره من خلق في حرب ، فشدّ ذلك من قلبي ، وحملني
على ما رأيت » .

وبذلك تحطمت أولى حركات التسلسل السياسي الكبرى ضد
القومية العربية ، بفضل تضامن العرب جميعاً على اختلاف ميولهم
السياسية ، ودفعهم الأحقاد واتحادهم في سبيل نصر قضيتهم العامة .
فلم يفكر معن بن زائدة مثلاً في انتهاز المأزق الذي وقع فيه

العباسيون والعمل على الانتقام ، وإثما فكر بعروبه الصادقة ،
واعتر نفسه جنديا يدافع عنها ، في كل وقت ، وتحت أية راية
مهما كان لونها ، مادامت تبغى سلامة الأمة العربية وبناءها .
واندثرت جماعة الراوندية إلى الأبد ، وظلمت القومية العربية
عالية الرأس . بفضل شجاعة ابنائها ، وسهرهم على حمايتها
والدفاع عنها .

الْحُرْمِيَّة

جماعات الحرّمية :

جرت أحداث التسلسل السياسى ضد القومية العربية تباعا أشبه
بالموج للتلاطم ، لا تكاد تسكر واحدة حتى تصل أخرى تحمل
حقداً أشد وفي عنف بالغ . فإذا كانت الراوندية فاجأت الأمة
العربية فإن حركة أخرى ، تعرف باسم الحرّمية أعدت
جماعاتها فى سرّية وتؤدة من أجل الهجوم على العرب ،
ولتجنب المصير الذي لقيته الحركة السالفة . والحرّمية حركة
أخذت اسمها من زوجة مزدك ، زعيم الإباحية القديم عند الفرس
واسمها خُسرَماً . ذلك أن تلك الزوجة حملت نشاط زوجها
الهدام ، بعد أن قتله كسرى قباذ ، وتابعت نشر مفاسده .

ووجد دعاة التسلل ضد القومية العربية في إحياء تعاليم خرّما زوجة مزدك سيّلا لجمع الأنصار من الفرس ، ثم إعدادهم للهجوم على الأمة العربية ، بعد أن يتشربوا أغراض هذه الحركة الهدامة .

وظلت جماعات الحرّية تعمل في الخفاء ، بعد فشل الراوندية دون أن تتمكن من الانطلاق لافتقارها إلى قيادة منظمة . وسرعان ما ظهر وسط أحداث النزاع بين الخليفة الأمين العباسي وأخيه المأمون شخصية خطيرة من بين جماعات الحرّية ، شأن قادة التسلل ، الذين يجدون مرتعهم الحصيب أيام الخلاف فقط في الصف العربي .

دسّس بابك الحرّمي :

كان قائم تلك الحركة الثانية في ميدان التسلل ضد العرب هو بابك ، الذي شبّ في وَسَطِ هِيَاءِ لثولى رئاسة تلك الجماعات الدينية الخطيرة ، ومتابعة رسالتها ضد الأمة العربية . ذلك أن بابك نشأ في قرية بلال أباذ قرب المدائن ، عاصمة فارس قديماً ، من أبوين تزوجا بعد فضيحة جنسية ، انتشرت أخبارها وأصبحت موضع ألسنة الناس . ثم أقام بابك مع امه ،

التي جعلت من منزلها مأوى لفقراء المسافرين من الناس . وبعد أن كبر بابك ألقت إليه الأحداث فرصة للانضمام إلى جماعات الحرمية ، ذلك أن رئيس الحرمية بالقرب من بلدته ضل طريقه في إحدى الغابات المجاورة ، والتجأ إلى منزل بابك ليقضى به الليل . وتحدث هذا الزعيم الحرمي مع بابك ، ولمس فيه خبثاً فطرياً وجرأة تجعله صالحاً للانضمام إلى تلك الجماعة الفاسدة . فكان شرط الانضمام للحرمية هو الاتصاف بالمكر والدهاء والقدرة على التسلل بين الناس . وفي صباح اليوم التالي أخذ رئيس الحرمية بابك معه ، واخذ يدربه على التسلل ويلقنه مبادئ جماعته المعادية للأمة العربية .

- وبعد أن توفي زعيم الحرمية صار بابك المرشح الوحيد للرئاسة من بعده . ذلك أن زوجة الزعيم المتوفي كانت قد عشقت بابك ، ووجدت في موت زوجها فرصة لمساومة بابك على الزواج منها مقابل تمهيد السبيل له لرئاسة تلك الجماعة . فذهبت إلى بابك ليلة وفاة زوجها وقالت له : « إنك جلد شهيم ، وقد مات زوجي ولم يعلم بذلك أحد ، وإني سأجمع الأتباع غداً ، وأخبرهم أن زوجي قال لي ، إني أريد أن أموت هذه الليلة ، وإن روجي تخرج من بدني وتدخل في بدن بابك ، وتشترك مع روجه ،

وإنه سيبلغ بنفسه وبكم أمراً لم يبلغه أحد ، ولا يبلغه بعده أحد ،
وإنه يملك الأرض ويقتل الجبارة ، ويرتفع به صوتكم . وقبل
بابك هذا العرض لأنه يحقق له رئاسة الحرمية ، وبالتالي
لمَّ شملها تحت لوائه ، استعدادا للهجوم على الأمة العربية .

وفي اليوم التالي جمعت زوجة زعيم الحرمية رؤساء الجمعيات
السرية بها وأخبرتهم بما سبق أن دبرته مع بابك . وعندما ثارت
المتاعب في ذلك الاجتماع لم تجد تلك الزوجة من سبيل لإقناع
المفرضين غير تخويفهم من القومية العربية وأهلها . فقد قال أحد
الحاضرين للزوجة : كيف لم يدعُ بنا زعيمنا ويوصي لنا بما
يريد عندما حضرته الوفاة ؟ . فقالت الزوجة : ما منعه من ذلك
إلا أنكم كنتم متفرقين في منارلكم من القرى ، وأنه إن بعث
وجمعكم ، انتشر خبره ، فلم يأمن عليكم بطش العرب ، فعهد
إلي بما أؤديه إليكم . وعندئذ لم يجد أتباع الحرمية أمام
تخويفهم بالعرب غير التسليم بما قالته تلك الزوجة الماكرة ،
ونادوا ببابك رئيساً أعلى لهم .

وبتنصيب بابك رئيساً لطائفة الحرمية دب النشاط الهدام
مرة أخرى ، بغية النيل من الأمة العربية . ورسم بابك الخطة
لأتباعه من أجل العمل ضد العرب ، وانتزاع السلطة منهم

ونحويلها إلى الفرس . فحثهم على إخفاء مقاصدهم حتي لا تظن
إليهم السلطات العربية وتضربهم قبل أن يتموا استعدادهم ، على
نحو ما حدث للراوندية . ثم لکن الحرمية تعاليم تحض على
تعظيم ابي مسلم الخراساني ، باعث حركات النسل ضد القومية
العربية ، وبالتالي دَمَّ أبي جعفر المنصور ، الذي اطاح بالقائد
الأكبر للتسلل ، وهادم الراوندية كذلك . وأتم بابك تنظيم
طائفته بأن جعل لكل جماعة منهم رؤساء يرجعون إليه ، وهؤلاء
الرؤساء يأترون بدورهم بأمره وحده ، ودأب على إرسالهم
باستمرار إلي شتى الجهات لإعداد العدة لمهاجمة الأمة العربية .

اتصال الحرمية بالفوى الاستعمارية :

بدأ بابك ، بعد ان اطمأن إلي استعدادته يبعث بعصاباته
الحرية من فارس للهجوم على البلاد العربية . وعندئذ رأى
الخليفة المعتصم العباسي أن الواجب يقضى بحصار هذا المركز
الخطير ضد الأمة العربية قبل أن يستشري شرره وناره .
ونظمت السلطات العربية جهادها بإعداد فدائيين يمكنهم التوغل
بين أوكار الحرمية ، ومفاجأة طلائعها كذلك وهي في عرض
الطريق . وبذلك وقع كثير من رجال الحرمية اسرى في أيدي

العرب ، وعرفت السلطات العربية الكثير من قادة بابك وأعوانه . واستطاع الفدائيون العرب مفاجأة أعظم قادة بابك وأشدّهم خطورة ، ويدعى طرخان . والقبض عليه وإعدامه ، إذ ظلوا يراقبون 'حركات هذا القائد حتي علموا انه سيقضى الشتاء في موطنه ، استعدادا للعمل ضد الأمة العربية في مطلع الربيع ، وفي جوف الليل هاجموا وحملوه أسيراً إلى السلطات العربية التي تخلّصت من هذه الشخصية الفاسدة ، والتي كانت الساعد الأيمن لبابك .

وادرّك بابك انه لن يستطيع الصمود وحده أمام الأمة العربية ، ومقاومة قواتها ، ولذلك التجأ إلى دولة الروم (البيزنطيين) ، وطلب من أباطرتها المساعدة ضد الأمة العربية . وكانت هذه الدولة بدورها تتحين الفرص لتوسيع ممتلكاتها في جنوب آسيا الصغرى على حساب البلاد العربية في شمال الشام ، وبلاد العراق كذلك ، ووجدت في دعوة بابك سبيلا لتحقيق مآربها الاستعمارية . واتهز الروم مسير الجيوش العربية لحرب بابك ، وهجموا على شمال العراق ، وهي خلوا من أسباب الدفاع القوي ، وأملا في الاتصال بقوات بابك في شمال فارس . وتولى الإمبراطور البيزنطي « ثيوفيل » قيادة جيوش الروم ، مما يدل

على خطورة التحالف بين الروم والخرمية ضد البلاد العربية .
ولكن قوات الروم تعثرت بفضل المقاومة العربية ، وعجزت
عن الانصال بالخرمية ومساعدتها ضد الجيوش العربية . ولذا عاد
الإمبراطور « ثيوفيل » تاركاً بابك يلتقى وحده جزاءه المحتوم .

انتصار القومية العربية :

لم تغير حملة الروم شيئاً من خطط السلطات العربية ، ذلك
أن الخليفة المعتصم لم يشأ أن يبادر بالانتقام والأخذ بالثأر
من الإمبراطور البيزنطى ، وإنما آثر أن يترك ذلك إلى حين
الانتهاء من حركة التسلل الخطيرة التى قام بها الخرمية . وكشف
المعتصم بذلك عما يتحلى به العرب من أفق واسع وإدراك سليم
للمخاطر الحقيقية التى تواجه أمتهم . وأخذت الجيوش العربية
تخرج تباعاً للهجوم على قلاع بابك ، وأوكاره العديدة . ولم تكن
تلك المهمة العربية سهلة أو يسيرة ، لأن الخرمية اتخذت معاقلاًها
وأوكارها فى مناطق حصينة على قمم الجبال ، وأجادت إخفاءها
فى دقة ومهارة تامة .

ورسم القادة العرب خططهم بمهارة فائقة كذلك ، وفى حذر
يفوق أساليب الخرمية . فأنشأوا نقاطاً عديدة للمراقبة على المسالك

والطرق المؤدية لقمم الجبال ، وألقوا القبض على كل من يشبهه في امره عند اجتيازها . وبذلك صار بابك محاصراً حصاراً شديداً ولا يستطيع تنظيم العمل بين كوائمه المبعثرة في شتى أنحاء الجبال . وفي الوقت نفسه استطاعت الخبايا في الجيش العربي اكتشاف مقر بابك نفسه ، والطرق السرية المؤدية إليه . وعلى هدي هذه المعلومات انطلق الفدائيون العرب يهجمون على مقر بابك نفسه ، ومن ورائها القوات العربية الرئيسية . وعندما اقتحمت القوات العربية الحصون الأمامية للحرمة فر بابك ، تاركاً أتباعه يلقون وخدام الأسر والتشريد .

ولكن السلطات العربية في فارس عرفت مكان اختفاء بابك ، وبعثت بفرقة على عجل القت عليه القبض . وحاول بابك الفرار مرة أخرى ، ولكن رئيس الشرطة قال له متهمكاً : « مدّ رجلك أيها الملك ، وأوثقه بالحديد ثم سخر منه أيضاً قائلاً لبابك : « ما أنت إلا راعي غنم وبقر - وهي الخدمة التي اشتغل بها بابك قبل انضمامه إلى الحرمة - مالك والتدبير والملك ونظم السياسات » . وبلغ نبأ القبض على بابك إلى العاصمة العربية ، فهلل الناس فرحاً وتبادلوا التهئة باتهاء الكرب العظيم الذي يهدد بلادهم .

واعد الخليفة المعتصم موكبا للتشهير بهذا العدو اللدود ،
 وليعرضه على الناس حتى يطمثوا على سلامة أمتهم ، وتم الاتفاق
 على أن يسير بابك في شوارع العاصمة راكبا فيلا حتى يتمكن
 الجميع من مشاهدته . وبعد أن انتهى سير الموكب أمر الخليفة
 بإعدام بابك ، جزاء على حركته الخطيرة التي دأبت على التسلل
 ضد البلاد العربية مدى عشرين عاما متتالية . وأرسلت السلطات
 برأس بابك إلى سائر العواصم العربية ليراها الناس ، ويشاهدوا
 بانفسهم انتهاء أخطر حركة للتسلل ضد قوميتهم الراسخة
 الأوتاد .



حركات التسلل العقائدي

الفصل الثالث

(١) جماعة الحشاشين

باب التسلسل العقائدي :

أعداء القومية العربية من الضربات القاصمة التي نالتها حركاتهم السياسية ، وأقبلوا فيما بينهم يتدارسون أسباب هذا الفشل الذريع ، جاهدين في وضع خطة جديدة تمكنهم من متابعة عدائهم ، والتفيس عن حقدهم الأسود . وتولى هذه الدراسة الجديدة نفر من الفرس ، ممن سبق أن ألقت بهم السلطات العربية في السجون بسبب اشتراكهم في المؤامرات والفتن ضد الأمة العربية . وتمحضت دراساتهم عن أن سبب الفشل هو اعتماد قادة حركات التسلسل السياسي على الفرس أنفسهم ، واتخاذ مراكز تلك الحركات في فارس نفسها . إذ أتاح ذلك للسلطات العربية اكتشاف طلائع التسلسل ،

والمبادرة إلى وأدائها وهي ما تزال في دور الرضاع .
ولذا رسم أعداء الأمة العربية خطة تسلمهم الجديد
على أساس وضعها في قالب يصعب فهم حقيقة أمره ، والبحث
في الوقت نفسه عن نفر من العرب يتخذون من آرائهم
ستارا يخفي مومهم عن أولى الأمر في البلاد العربية .
فكان شعار الحطة الجديدة أن يسير اعداء القومية العربية
في تسلمهم على قاعدة أن يظهر الفرد منهم غير ما يبطن ، فيعلن
حماسه وغيرةه على التقاليد العربية ، على حين يبطن العمل
على إحياء دينه القديم بين الأشخاص الذين يقعون في شركه
او يتأثرون بأقواله . ويطلق على هذه الحركة الجديدة اسم :
« الدعوة الباطنية » ، والتي ثبت انها عنصر خطر في حرب
القومية العربية . ذلك أن دعاة الباطنية تسللوا تحت ستار أن
لكل ظاهر باطنا لا يفهمه إلا اناس مخصوصون ، ويمكنهم
بذلك الالتواء في إجاباتهم إذا احسوا خطرا ككتشاف أمرهم .
ووجد أنصار هذه الحركة الخطيرة ثغرة مواتية للقيام
بنشاطهم الهدام ضد البلاد العربية في فرقة الشيعة ، التي تنادي
بأن الأئمة من بيت علي بن أبي طالب أحق بالخلافة من العباسيين .
إذ دخل نشاط هذه الفرقة في ذلك الوقت من تكون حركات

التسلل ، في صورة سهلت على اعداء الأمة العربية العمل ضد سلامتها . ذلك أن اتباع الشيعة تعرضوا إلى اضطهاد شديد من جانب العباسيين ، دفع أئمتهم إلى وضع نظام لحمايتهم ، يعرف باسم « التَّقِيَّة » . ويقصد بذلك المبدأ الشيعي أن المرء إذا خاف علي نفسه وماله من عدوه ، فله الحق في أن يظهر غير ما يظن ، ويباح له الالتجاء إلى الكتمان والمداراة ، والتظاهر بما ليس هو الحقيقة ، ولا سيما إذا اشتد به التهديد والوعيد . وصار مبدأ « التقية » بذلك جزءا يكمل تعاليم الشيعة ، وركنا هاما من مذهبهم وعقيدتهم .

ودخل مبدأ التقية في دور التنفيذ العملي في الوقت الذي رسم فيه قادة التسلل خطط دعوتهم الباطنية للهجوم على الأمة العربية . ذلك أن أئمة الشيعة من سلالة علي بن أبي طالب عمدوا إلى إخفاء شخصيتهم حتى لا يمتد إليهم بطش العباسيين ، وأخذوا يعملون في السر أو الحفاء عن طريق دعاة لهم لا يصح لهم بأى حال من الأحوال إفشاء اسم الإمام الذي يدعون له ويعملون من أجله ، وإنما عليهم تلقين الناس فقط تعاليمه ، ويحثونهم على التذرع بالصبر ، وانتظار خروج هذا الإمام المستور ، أى المحتفى ، في الوقت المناسب ليقضى على المفاسد ويعيد العدالة

والنظام . وبذلك صار للشيعة الحق في العمل وفق نظام التقية ،
اي استخدام شتى الأساليب التي تخفى حقيقة أمرهم عن السلطات
العباسية ، حتى أصبح مبدا التقية آخر الأمر هو النظام السرى
للشيعة ، بحيث إذا أراد الإمام المستور تنفيذ خطة او إحداث
ثورة اعلم أصحابه بما عزم عليه دون ان يستطيع أحد اكتشاف
أمره ، ويظل الأمر أيضا في طي الكتمان إلى ان تحين ساعة
العمل المتفق عليها .

ويعزى إلى أحد الأئمة من سلالة علي بن ابي طالب ، وهو
الإمام السابع من بعد علي نفسه ، ويعرف باسم إسماعيل بن جعفر
الصديق ، تنظيم مبدا التقية حتى أصبح مؤسس جماعة جديدة
من فرقة الشيعة نسبت إليه ، وأطلق عليها اسمه وعرفت باسم
طائفة « الإسماعيلية » . وراى أعداء العرب في طائفة
الإسماعيلية ومبادئها القربة الحصبة لبذر بذور حركتهم التسليية
الجديدة ، والعمل تحت لواء أئمتها المستورين ، اي المتخفين ،
وتحويل انصار تلك الطائفة ، ولا سيما من أبناء الأمة العربية
إلى حركتهم .

زعيم الحشائين :

وكان على رأس دعاة التسلل فى مظهره الجديد الخطير ،
فارسى اسمه : الحسن بن الصباح . إذ ولد فى مدينة الري بفارس
(حوالى سنة ٤٣٠ هـ) ، فى أسرة اتخذت التشيع عقيدة لها
لتستطيع التسلل عن طريقها ضد الأمة العربية . واشتهر أهل
الحسن الصباح بإجادة استخدام مبدأ التقية ، فظهروا بين
الناس تمسكهم بالمذهب السنى الذى كانت عليه السلطات العباسية ،
إمعاناً منهم فى التخفى وستر أغراضهم الحقيقية . وكان والد الحسن
الصباح نفسه حجة فى التسلل تحت مبدأ التقية ، فبعث ابنه نفسه
إلى المدارس السنية ليختبر أهلها ، ويعرف الكثير عن أحوال
أبناء العرب بها .

وعندما كبر الحسن بن الصباح تلقن أصول عقيدة طائفة
الإسماعيلية ، وأظهر استعداداً عالياً فى المكر والدهاء والمقدرة
على استخدام مبدأ التقية ، أى التخفى التام وستر جميع نواياه
وأغراضه عن أقرب المقربين إليه . وعلم فى ذلك الوقت أن دولة
أسسها الشيعة فى مصر وهى دولة الفاطميين ، وعول على الذهاب
إلى مصر ودراسة أحوال هذه الدولة ، التى غدت من أقوى

الدول المدافعة عن العروبة وقوميتها . وكانت الخلافة العباسية في بغداد ضعيفة في ذلك الوقت مما جعل مقاليد الدفاع عن الأمة العربية تؤول إلى القاهرة .

وعندما وصل الحسن الصباح إلى القاهرة ارتأبت السلطات العربية في أهدافه ومقاصده . وكان الوزير الفاطمي الذي اكتشف امر هذا التسلل الخطر هو « بدر الجمالي » ، إذ رأى أن الحسن الصباح يبدى اهتماما بالشئون الداخلية للدولة ويعمل على الاتصال اللرب بالناس ، مستهدفاً إثارة الفرقة والرية في نفوسهم . واستطاع هذا الرجل الخطر الاتصال بأبناء الخلفاء الفاطميين انفسهم ، وبدأ يثير البغضاء في قلوبهم ضد وزراءهم . ودبر الوزير بدر الجمالي مؤامرة للإيقاع بالحسن الصباح والزج به في السحن . إذ اتفق الوزير مع نفر من الناس ممن دابوا على حضور جلسات الحسن الصباح على مناقشته في آرائه ، وهناك سره ، وكشف حقيقة امره للناس . ولكن هذا المتسلل الخطر علم بالمؤامرة ، وهرب من مصر بعد أن أدرك يقظة السلطات العربية بها ، وشدة مراقبتها للمتسللين إلى الشرق العربي .

وماد الحسن الصباح إلى فارس وقلبه مملوء بالحقد على السلطات العربية في مصر ، لأنها سدّت في وجهه سبل التسلل إلى الشرق

العربي، وفي بلاده بدأ يضع الخطط العملية للتسلل مرة أخرى إلى الشرق العربي، والانتقام من القوامة على الأمة العربية هناك. وهداه تفكيره إلى الاستيلاء أولاً على القلاع الحصينة في فارس واتخاذها أوكاراً يدرّب فيها أتباعه على أساليبه الجديدة لمهاجمة البلاد العربية. وكان السلاح الجديد الذي لقّنهُ لأتباعه هو الاغتيال الدنيء، شأن الخونة الذين يعملون في الظلام، لأنهم لا يستطيعون الإبصار في ضوء القومية العربية الحاطف.

واستطاع دعاة الحسن الصباح الاستيلاء على القلاع الحصينة في شمال فارس، ومنها قلعة مشهورة بمنعتها التامة، واسمها قلعة «ألموت». إذ تقع تلك القلعة على قمة عالية وحولها وهاد، بحيث لا يستطيع أحد الوصول إليها إلا بعد جهد جهيد. وجاءت سيطرة الصباح على قلعة ألموت نموذجاً يكشف عن خصاله الحبيثة. إذ أرسل أنصاره متسللين إلى القلعة، وأغروا جندها على توجيه دعوة إلى الحسن الصباح بالحضور. ولما وصلت الدعوة، ذهب الحسن إلى القلعة متخفياً، خوفاً من أية مفاجأة تعترض سبيله. وحين دخل القلعة لم يعرفه أحد من الناس سوى أتباعه المقربين، وتظاهر امام الجميع بأنه نائب الحسن بن الصباح وقضى عدة أيام يدرس القلعة دراسة دقيقة ويتبّين معالمها،

ويفحص حصونها ويقف على أحوال الناس بها . ولما تأكد من صلاحيتها لأغراضه كشف عن شخصيته ، واتخذها مقراً للتسلل للقبل ، وميداناً لتدريب أتباعه .

تدريبات الحشاشين :

اتخذ رجال الحركة التسلية اسم الحشاشين من التدريبات التي وضعها لهم زعيمهم الحسن الصباح . واستهل تدريباته بأن اعتذر عن مقابلة الناس إمعاناً في بث الهيبة في النفوس ، واقتصر على إصدار الأوامر إلى دعائه المخلصين . ومن القرارات التي نتج عنها اسم الحشاشين ، هو أن الحسن الصباح اصدر أمراً بأن تزرع سفوح الجبال بالقرب من قلعة الموت ، وأينعت بالأزهار حتى صار يطلق على المنطقة اسم : « جنة شيخ الجبل » وهو الحسن بن الصباح . وترددت الشائعات بأن شيخ الجبل انشأ في واد بين جيلين بالقرب منه حديقة فسيحة ، شيد فيها مقصورات حسناً ، جمل عليها قباباً بديعة الشكل وزخرفها بالنقوش ، وجعل في حديقته انهاراً من خمر ، وحولها نساء جميلات يلهون ويعزفن للوسيقى الشجية . ثم إن الفرد من أتباع الحسن الصباح إذا أظهر ولاء واستعداداً طيباً لفهم أهداف

الحركة ، يعطى مادة الحشيش المخدرة ، ثم ينقل وهو في غيبوبته إلى الحديقة الجميلة ، فإذا فتح الفرد منهم عينه أحس أنه في الجنة التي وعد بها المنتقون ، وأن حق الإقامة بها وقف على شيخ الجبل وحده .

ولذا أطلق بعض الناس على عصابات الحسن الصباح اسم : الحشاشين ، نسبة إلى تعاطيهم مادة الحشيش قبل دخولهم جنتهم المزعومة ، على حين أطلق عليهم الأورليون اسم « السفاكين » (الذي حُرِّف إلى الحشاشين) ، بسبب إجادتهم الاغتيال ، الذي صار ممة اختصّوا بها وحدهم من دون الجمعيات السرية المعاصرة لهم .

وكان الحسن الصباح يختار أتباعه من الشبان ، الذي يمكن تضليلهم بشقى سبل الإغراء . ثم يدرب الفرد منهم على استعمال الأسلحة المعروفة إذ ذاك ، ولا سيما الضرب بالخنجر . وفي الوقت نفسه تعلم كل عضو في تلك العصابات كيف يخفى أمره تماما عن الناس ، وإذا وقع أحدهم في قبضة الشرطة فيجب أن يقتل نفسه في الحال ، وإذا لم يتمكن فعليه ألا يبوح لأحد بأمر عصابته ، وألا يتفوه بكلمة أو واحدة . واستخدم الحسن الصباح القسوة التامة في تدريب أتباعه ، حتى إن الفرد منهم ليغمد خنجره في صدره

مباشرة حال سماعه الأمر بذلك من شيخه ، على حين يرمي آخر
بنفسه من نافذة بأعلى القلعة إذا طُلب منه القيام بذلك . وصارت
جماعة الحشاشين بذلك مصدر فزع عند جيرانهم ، ولا سيما
في إقليم العراق ، حيث سقط كثير من رجال الخلافة العباسية
صرعى خناجرهم . وعبر أحد المؤرخين عن الفزع الذي انتاب
الناس من الحشاشين بقوله : « إنهم أخافوا السبل وأجالوا
على الأكابر ... ولم يجد أحد من الملوك في حفظ نفسه منهم
حيلة . »

يقظة مصر لتسلل الحشاشين :

وعلى الرغم من مجهودات الحسن الصباح ، فإن الحشاشين
فشلوا في التسلل إلى الشرق العربي بفضل يقظة السلطات في مصر .
ذلك أن الدولة الفاطمية وقفت سدا منيعا ضد هذه الحركة
الخطيرة ، وحالت بين أتباعها السفاكين من التماذي في إنزال
الرعب بالناس . فالسلطات العربية في مصر أدركت بنفسها نوايا
الحسن الصباح الدنيئة ضد الأمة العربية ، ولم تتمكن من النيل
منها . وكان قائد هذه الحركة ينبغي اختطاف أحد أبناء البيت
الفاطمي من مصر ، وحمله إلى مقره في قلعة الموت ليجعل منه

منافسا للسلطات العربية في القاهرة ، ويستخدمه مطية في التسلل
ضد القومية العربية .

وجاءت عصابات الحشاشين تترى إلى مصر ، واخذت تتحايل
علي تنفيذ أوامر شيخها . غير أن السلطات العربية بالقاهرة
تعقبت نشاطهم ، واكتشفت دسائسهم في كل مكان قبل أن يمتد
خطرها إلى سائر الأرجاء . فظل أبناء البيت الفاطمي بمصر
عن خناجرهم ، كما أن أفراد الشعب تعاونوا مع السلطات الرسمية
في القبض على أفراد تلك العصابات التي تسللت إلى داخل البلاد .
ودب اليأس إلى الحسن الصباح ، الذي وجد أن مشاريعه
قد انهارت في النيل من الأمة العربية بسبب جهاد مصر .
إذ استهدف من اختطاف أحد أبناء البيت الفاطمي إعطاء دولته
في فارس صبغة شرعية ، وتحويل أنظار العرب إليها بدلا
من القاهرة .

وتجلى ياس الحسن الصباح وتخطيط سياسته في أواخر أيامه ،
إذ قتل ابنه الأكبر ، الذي اتهم في مؤامرة ضد الحشاشين ،
وهجر زوجته ، وانقطع إلى وحدة قاتلة ، بعد أن صار بلا وريث
لحركته . وعلى الرغم من اختياره لنفر من رجاله المقربين ليتولوا
متابعة رسالته الفاسدة بعد موته ، فإن حركته صارت رهنا

بحياته فقط ، لأن قسوته جعلت منه شخصا منعزلا عن الجميع .
ولذا ما إن توفي الحسن الصباح حتى اخذت جماعات الحشاشين
في الانهيار ، وانحسرت موجة حركتهم الخطيرة عن البلاد
العربية . وفي الوقت نفسه ظهرت في مصر شخصية صلاح الدين ،
الذى استولى على مقاليد الأمور من الفاطميين ، وأسس لنفسه
دولة في مصر ، قُدر لها أن تنهض بعبء الدفاع عن الأمة
العربية ضد أعدائها من الحشاشين ، وغيرهم من القوى الأوروبية
التي جاءت جيوشها الصليبية تبغى احتلال الشرق العربي ،
إذ كتب التاريخ لصلاح الدين صفحة رائعة في سبيل سد السبل
أمام فلول الحشاشين والقضاء على الصليبيين كذلك ، وجعل علم
القومية العربية خفاقا ، يبعث الهيبة والرهبة في نفوس أعدائها .

(ب) القرامطة

ظهور حركة القرامطة :

نشأت حركة القرامطة في مهاد طائفة الإسماعيلية الشيعية
علي نحو ما قامت به جماعة الحشاشين . ويرجع اصل هذه الحركة
الثانية إلى نشاط رجل فارسي خطر معروف بكراهيته للعرب

واسمه عبدالله بن ميمون القدّاح . وبدأ هذا الزعيم الثاني تسلمه ضد الأمة العربية بالانضمام إلى طائفة الإسماعيلية ، التي صارت عشا آمنّا لكل راغب في النيل من البلاد العربية . فادعى عبد الله بن ميمون أنه يدعو للإمام المستور ، أي المحتفي ، من الشيعة ، وأنه لا يستطيع الإفصاح عن شخصية هذا الإمام ، وإنما اشاع اقتراب ظهوره ، وأنه سينقذ الناس من متاعبهم .

ولجأ عبد الله بن ميمون إلى السرية التامة كذلك في التسلسل عن طريق الدعوة للإمام المستور حتى لا يثير شكوك السلطات العربية نحوه . فكان الشخص الراغب في اعتناق المذهب الجديد يؤدي قسماً بالآ يفشى ما يلتقي إليه من أسرار ، وإلا صار عرضة للقتل ونهب أمواله . ووضع هذا الزعيم الخطر سبع مراحل كان على الفرد أن يجتازها قبل أن يصبح عضواً فعالاً في عصاباته ، ضماناً منه للسرية التامة . وبدأ عبد الله بن ميمون يتصل بكبار رجال الفرس الحاقدين على العرب ، ويجمع منهم الأموال للانفاق على حركته السرية ضد الأمة العربية .

وكشف قائد هذه الحركة الخطيرة عن أهدافه ووسائله من أجل التسلسل لأحد كبار أهل فارس ، واسمه دندان ، حين طلب منه معونة لحركته ، إذ قال لدندان : إن لي أتباعاً أبشهم

فى البلاد ، فيظهرون التقشف والتصوف والتشيع ، ويدعون
 إلى ما نريده من الهجوم على العرب . وإن نجاح حركتنا تعتمد
 على الحداثة ، فأشير عليك ألا تظهر ما فى نفسك للعرب ، والزم
 التشيع والبكاء على اهل البيت (اى بيت النبي ، ويعنى بهم
 إذ ذاك أبناء علي بن أبى طالب) ، فإن ذلك سبيل لاكتساب
 كثير من أتقياء العرب إليك . وعندما تشعر بكثرة أنصارك
 وإخلاصهم لك يجب أن تخطو الخطوة الثانية وهى تشويه سمعة
 كبار رجالات العرب ، ولا سيما الخلفاء الراشدين ، وغيرهم
 من بُناة الأمة العربية والساهرين على سلامتها . وبذلك
 تستطيع صرف أذهان العرب عن ماضيهم المجيد ، وبالتالي هدم
 اعتزازهم بعروبيتهم .

وحصل عبدالله بن ميمون من دندان على هبة مالية بلغت نحو
 مليوني دينار ، أخذ يصرف منها على انتقاء الدعاة الصالحين لتنفيذ
 سياسته التسليية . وانتقى أولئك الدعاة من الأشخاص الذين
 يجيدون فنَّ الإلقاء بما يؤثر على السامعين ، ومن أصحاب الأصوات
 ذات الرنة التى يمكن أن تنفذ إلى الأعماق ، وذلك فضلا
 عن توافر الذكاء النادر لديهم ، والقدرة على عدم إثارة الشكوك
 حولهم . ودرب أولئك الدعاة أيضاً على شتى فنون التخفى ،

والتأويل ، إذ القدرة على التأويل تنقذهم من الأسئلة الحرجة ،
أما التخفي فهي لهم سبل التسلل في زى التجار أو المتصوفين ،
وكذلك الزراعة والصناع والعلماء ، كل ذلك حسبما يقتضيه الوضع
والمكان والزمان . وساعد أولئك الدعاة طبقة أصغر منهم ،
مهمتهم تمهيد الطريق بإثارة الشكوك حول عقائد الباس وذلك
بالدخول معهم في جدل أجوف ، وعندئذ يتدخل كبار الدعاة
باعتبارهم المنقذين للناس من الضلال .

وظهرت اولى ثمار تسلل عبد الله بن ميمون في إقليم العراق
الذى صار بمثابة البوابة التقليدية للتسللين الفرس ، إذ بعث هذا
الرعيم الفاسد بأحد كبار دعاة وهو حسين الأهوازي إلى الكوفة ،
لأنها اشتهرت منذ أيامها الأولى بالتشيع لآل على بن أبى طالب ،
فضلا عن أن بها جماعات من المزارعين السذج ، مما يسهل خلق
أنصار عديدين بينهم هناك ، ويمكن عن طريقهم التسلل إلى سائر
أنحاء العراق . وكان حسين الأهوازي فعلا من اخطر المتسللين ،
المدرين خيرة تدريب ، إذ حين دخل الكوفة تظاهر بالنسك الشديد
والورع التام ، وآثر الابتعاد عن كسب المال ، واشتغل في نسج
الخصوص ليكسب قوته ، مما جذب إليه قلوب الناس الذين انخدعوا
في مظهره البراق . وكان ممن وقع في حبال حسين الأهوازي

فلاح اسمه : حمدان بن الأشعث ، أطلق عليه الناس اسم قرمط ، بسبب تقارب خطوات مشيته أثناء السير . وكان هذا العراقي ممن يؤمن بنظرية الأئمة للستورين ، أى المختفين فى مذهب الإسماعيلية ، وصار بذلك فريسة سهلة لتلقى آراء الحسين الأهوازي .

وبدأ حسين الأهوازي تسله عن طريق حمدان قرمط ، بأن قابله أثناء عودته من حقله بطريقة تبدو كأنها جاءت عفوا . وكان حمدان قرمط يحجر ثوراً وفى طريقه إلى منزله حين قابله حسين الأهوازي . وبعد أن التقيا وتماشيا ساعة ، قال حمدان للأهوازي : أراك جئت من سفر بعيد ، ويبدو أنك متعب جدا فاركب ثورى لتستريح . فقال الأهوازي : لم أؤمر بذلك ، فقال حمدان : كأنك تعمل بمقتضى أمر لديك : ، قال الأهوازي ، نعم ، فقال حمدان : ومن يأمرك وينهاك؟ قال مالكى ومالكك ومالك الدنيا والآخرة . وعندئذ بُهرت حمدان قرمط ، لأن إجابة هذا المتسلل تحمل معنى ظاهراً وباطناً ، ولكن الأهوازي تدارك الموقف ، وقال لحمدان : يا هذا ، ما عليه ما ذكرت إلا الله . فقال حمدان صدقت . وبذلك اطمأن الأهوازي إلى قبول حمدان قرمط لأرائه ، وبدأ يخططو معه الخطوة التالية فى ميدان التسلل .

وأثبت حسين الأهوازي قدرة خطيرة في استغلال العقائد من أجل التسلسل ، إذ حين رغب في أن يخطو الخطوة الثانية مع حمدان قرمط ، قال له : إني أريد أن أذهب إلي قرية كذا ، وما هو الطريق المؤدى إليها ، فقال له حمدان : وماذا تريد في تلك القرية ؟ فقال الأهوازي : إن معي كتابا به سر من أسرار الله ، وأمرت بالذهاب إلى تلك القرية لأغنيي أهلها ، وأهديها إلى ما فيه نفعها . فقال حمدان : نشدتك الله ، أرجو أن تعطيني من هذا العلم ، وتقذني به . فقال الأهوازي : لا يجوز ذلك إلا إذا اخذت عليك عهداً وميثاقاً بالاتباع بما ألقيه إليك لأحد . فأجابه حمدان لما يريد واصطحبه معه إلى منزله .

واتخذ الأهوازي من منزل حمدان قرمط مركزاً للتسلسل بين أهالي العراق ، ويأخذ على كل من يتوسم فيه الصلاحية لآرائه اليهود والموائيق بالكتمان الشديد . وبدأ الفساد والفوضى ينتشران في منطقة الكوفة نتيجة تعاليم الأهوازي ، حتي إن السلطات القت عليه القبض . وعندئذ فر من السجن بمساعدة أنصاره ، وترك لقرمط رئاسة حركته من بعده ، حتي إنها نسبت إليه ، وعرف أتباعها باسم « القرامطة » .

منظومات القرامطة السرية :

وكشف حمدان قرمط عن مواهب خطيرة في ميدان التسلل
فاق فيها أستاذه الأهوازي . فاتخذ قرية بالقرب من الكوفة ،
اسمها « مها باز » ، وأمر أتباعه بالذهاب إليها ، واتخاذها وكرا
يختبئون فيه من السلطات العرية في العراق . وجعل حمدان تلك
القرية بمنابة « دار هجرة » لأنصاره وميداناً ، يدرهم فيها على أساليب
التسلل ضد الأمة العرية . ثم إنه أمر أتباعه بتحسين تلك الدار
الجديدة ، وشيد لها سوراً هائلاً ، وأقام لها الحراس دفعا لأي
هجوم من جانب السلطات العرية . وفي ذلك المكان السرى لقن
حمدان أتباعه كراهية جيرانهم ، وبث في نفوسهم الحقد على أهلهم
وذويهم ممن يقيمون في البلاد العرية . ثم إنه منى كل فرد
بالوعد والأمين الكاذبة ليجعله مسلوب الإرادة ، مستعدا
لتقبل كل التعليمات التي تلقى إليه ، ولا سيما تلك التي تحضه على
التخريب والتدمير .

وكان يتلو هذا الإعداد النفسى إعداد آخر حربي ، تمهيدا
للتسلل الهدام . فكان ينتقى الأطفال الأشداء ، ثم يبعدهم
عن أسرهم ، ويديرهم على شتى فنون القتال ، علي يد رؤساء

قساة غلاظ القلوب . وكان أفراد تلك العصابات يدربون علي ركوب الحيل واستخدام القوس والنشاب وغيرها من وسائل القتال التي تصلح لحروب العصابات. وبالغ حمدان قرمط في اختيار أفراد عصاباته ، حتى إن الواحد منهم كان يوسم على خده حتى يسهل تمييزه ، واستدعاؤه في سرعة . وصار للقرامطة بذلك منظمات خطيرة بالعراق ، وغدت على وشك الانطلاق ضد البلاد العربية .

تسلل القرامطة إلى الشرق العربي

انتشار القرامطة في بلاد العرب :

بعد وفاة حمدان قرمط، ذهب فرع من عصاباته إلى البحرين على الساحل الشرقي لبلاد العرب ، واستولى على مدينة هَجَرَ وجعلها مركزاً لتسلله في تلك البلاد بعيدا عن العراق ، بعد أن بدأت السلطات العربية هناك تطارد جماعة القرامطة ، وتساءل شأفتهم . واستطاع القرامطة تثبيت أقدامهم في تلك الجهات من بلاد العرب ، ونشروا الفوضى فيها وفي سائر أرجائها . وتمادى قادة القرامطة في ضلالهم حين وجهوا نشاطهم الهدام

إلى مهاجمة الأماكن المقدسة في مكة والمدينة . وركز القرامطة
هجومهم على قوافل الحجاج الذاهبة إلى مكة ، وأنزلوا بالحجاج
الآمنين شتى ألوان القتل والنهب والسلب الخفيف .

وكان أخطر نشاط لعصابات القرامطة هو تسلمهم إلى مكة
يوم التروية ، وهو اليوم الثامن من ذى الحجة ، حيث يستعد
فيه الحجاج للخروج في اليوم التالي لوقفه عرفات . ولذا لم يكن
أحد يتوقع غير الهدوء والسكينة في هذا اليوم الجليل . ولكن
عصابات القرامطة جريا على سياسة التسلل الدنيء ، اختارت ذلك
اليوم لمجومها العدواني ، وإفساد جلال موسم الحج . وزحف
أفرادها على منازل الحجاج ، وقتلوا الكثير من أهلها ، وسقط
أمير المدينة قتيلاً كذلك وهو يدافع عن مدينته . وجلس
زعيم القرامطة على باب الكعبة ، يعلن عن حقده الأسود قائلاً :
إنه قادر على إهلاك من يقف في سبيله .

غير أن المقادير وقفت بالمرصاد لزعيم القرامطة الذي قاد هذا
المهجوم الغادر على الأماكن المقدسة ، فلم يكد يستقر في هجر
حتى نزل به مرض عضال ، وطال عذابه ، وتقطعت أوصاله
وأطرافه ، وهو ينظر إليها ، وتناثر الدود من لحمه ، ذلك أن

بطش ربك شديد ، و انتهت حياته بالموت في العام نفسه الذي
اتهك فيه حرمة الأماكن المقدسة .

محاولة التسلل إلى الشام :

وبسط القرامطة نشاطهم كذلك إلى بلاد الشام ، وتولى
عصاباتهم إذ ذاك رجل خطر اسمه : ابن زكرويه . وكان أهل الشام
يشتغلون بالتجارة ، ويقوم بعض آخر منهم آمنا في قُراء ، ويعمل
على كسب قوته بمجده وكفاحه . وأمام هذه الحياة العرية
السليمة فشل تسلل القرامطة في بلاد الشام ، وعجزت فلولهم عن
اكتساب انصار لهم هناك . وأظهرت السلطات العرية في الوقت
نفسه يقظة بالغة في سد كل السبل التي يمكن للقرامطة التسلل منها .
وأظهر الجند العرب روحا عالية في محاربة جماعات القرامطة
التي استطاعت التسلل إلى داخل البلاد . ومن ذلك ان قائد
عصابات القرامطة دأب علي التخفي أثناء الهجوم ، حتى لا يصاب
بأذى ، ولم يمكنه الإشراف على مجريات المعركة . فكان يرتدى
ملابس فضفاضة ، ويخفي رأسه بعمامة كبيرة ، ويركب على جمل
خلف حارس له ، حتى لا يتبادر إلى أذهان الناس أن الرئيس
هو الراكب إلى الخلف . غير أن جنديا من الجيش العربي ظل

يتحرى ، حتى عرف أسلوب قائد القرامطة فى التحدى ، واقتحم الصفوف فى المعركة ، وأرداه قتيلا . وبذلك عاد القرامطة إلى البحرين ، على الشاطئ الشرقى لبلاد العرب ، حيث جعلوا مقرهم الدائم هناك ، وبدأوا يدرسون خطأ جديدة تساعدهم على استئصال التسلسل ضد الأمة العربية .

مهراء مصر فى حماية الشرق العربى :

وفى الوقت الذى اخذ فيه القرامطة يعدلون من خططهم ، قامت فى مصر الدولة الفاطمية ، التى ينتسب خلفاؤها إلى فاطمة الزهراء ، ابنة على بن أبى طالب . وجاء قيام هذه الدولة سدا منيعاً وقف فى سبيل تسلسل القرامطة إلى الشرق العربى ، وقوة هتكت سمومهم ودسائسهم . ذلك أن الفاطميين باعتبارهم من الشيعة أعلنوا فى صراحة وجراءة أن القرامطة لا يمتنون صلة لبيت على بن أبى طالب وشيعته . وبذلك فقد انصار هذه الحركة التسلسلية اهم ركن استندوا إليه فى إغراء الناس ، وانكشف خداعهم للجميع .

وكان من حسن طالع الأمة العربية أن تتولى مصر لواء الجهاد فى هذه المرحلة من تسلسل القرامطة إلى الشرق العربى .

ذلك أن الخلافة العباسية في بغداد عانت من الضعف الداخلي الشديد ما أغرى عصابات القرامطة بها وبسلطانها ، وصار يخيل إلي رؤساء تلك العصابات أن القومية العربية على وشك التصدع . واشتدت جرأة القرامطة في تلك الفترة من ضعف العباسيين ، وقبيل قيام الفاطميين في مصر ، حتي إنهم فرضوا إتاوات على سائر البلاد الممتدة من الخليج العربي إلى أطراف الشام .

ولذا استولى الفرع على زعيم القرامطة في البحرين من الفاطميين ، وعول على إعداد عصاباته وتسليحها تسليحاً كاملاً ليلقي بها في معركة حياة أو موت مع القوات العربية في مصر . وفي الوقت نفسه بعث بجواسيسه إلى الديار المصرية لمعرفة مدى قوة الجيوش العربية بها . ولكن السلطات العربية في القاهرة قد اتخذت لهذا التسلل أهبتها واحسن استعداداتها ، لأنها أدركت شدة خطورة القرامطة ، واغراضهم السيئة بالقومية العربية . فألقت الشرطة في مصر القبض على جواسيس القرامطة ، وأعدمتهم ، حتي إذا ما جاء زعيم القرامطة بعصاباته إلى مصر وجد السبل جميعاً مغلقاً في وجهه . واضطر أن يعود إلي وكره ، متوعداً مصر في قوله :

يا مصر إن لم أسق ارضك من دم

يروى ثراك فلا سقاني النيل

وباءت بالحسران كل حركات القرامطة بعد عودتهم الفاشلة،
ولم تستطع عصاباتهم التسلل إلى الشرق العربي لأن القوات
العربية المصرية وقفت لهم بالمرصاد ، وجعلت مركز تسلمهم عابلاً
مشلولاً . وتلا ذلك انتشار الفوضى في صفوف القرامطة ، ودب
اليأس إلى نفوسهم ، واندثرت قوتهم وتلاشت حركتهم ،
ودخلت أعمالهم في زوايا النسيان ، بعد أن تركت وراءها قصة
مجيده سطرها أبناء الأمة العربية في سبيل الدفاع عن قوميتهم ،
وحماية صرحها الشايع .



حركات التسلل الاجتماعي

جماعات الزنادقة

ظهور الزنقة :

أدرك أعداء القومية العربية أن السر الحقيقي لفشل جميع حركاتهم السياسية والعقائدية هو سلامة بناء المجتمع العربي ، وأن أفرادهم وقفوا جميعا وراء السلطات الرسمية يشدون أزرها في نضالها ضد دعاة التسلل ، ويسدون كل ثغرة يحاولون الاستفادة منها . فقد اتسم هذا المجتمع بتقاليد رفيعة متينة ، ثمرة جهاد الآباء والأجداد ، وصارت الحارس الأمين على القومية العربية ، والحصن الذي يصد عنها سهام الحاقدين المتسللين . واستطاع أبناء الأمة العربية بذلك أن يتجاوزوا حضاريا مع جيرانهم ، وإن ياخذوا منهم ما يفيدهم دون أن يقوموا في أي متاعب ، أو يتعرضوا لأي انحراف .

وامتلاء قلب أعداء الأمة العربية حقدا على هذا المجتمع السامى ، وأخذوا يوجهون حركاتهم التسللية نحوه ، محاولين إضعافه ، أملاً فى سلب القومية العربية سلاحها المعنوى والمادى البتار . وكان نطاق حركة التسلل الاجتماعى واسعاً ، إذ أعد قادتها خططهم على ألا تقتصر على طائفة معينة من الناس ، وإنما تشمل سائر طبقات المجتمع ، على اختلاف مراتبها ، من أبناء الأمراء والوزراء العرب ومن فى درجتهم من العلماء والأدباء والشعراء وسائر أهل الثقافة والفكر ، إلى أبسط الطبقات وأكثرها تواضعاً ، من عامة الناس ، ومن لفّ لفهم قاعد أنصار هذه الحركة لكل طبقة من طبقات المجتمع ما يناسبها من الخدع والأباطيل الاجتماعية ، وما يودى بقوتها وهبتها . وكانت الأسلحة التى لجأ إليها دعاة التسلل الاجتماعى ، هو نشر سموم الشك فى النفوس ، وذلك بإثارة الرية نحو التقاليد التى عاش الناس فيها زمناً طويلاً ، لأن ذلك يضعف إيمانهم بالسنن المألوفة ، ويجعلهم بالتالى عرضة لتقبل ما يلقى إليهم من أباطيل . فأشاعوا بين الناس الخلاعة والمجون ، وأغروهم على التأنيق الزائف فى ملبسهم ومأكلهم ، حتى يصبح الفرد ضيق الأفق ، لا يتمسك إلا بصفائر الأمور ، وتبتعد نفسه عن الطموح وحب الجد

والعمل ، ويتهى به الأمر إلى ان يصبح عبداً لغرائزه ، وأسير اندفاعاتها . وتعرف هذه الأسلحة الاجتماعية الفاسدة كلها وعلى اختلاف ، الوانها ، باسم « الزندقة » لأنها جميعاً تعتمد على الشك والريبة ، وهما ألد أعداء الحياة الاجتماعية .

تسلل الزندقة إلى المجتمع العربي :

وجد دعاة التسلل الاجتماعى فى إحدى ديانات فارس القديمة ضالهم المنشودة فى حرب الأمة العربية . وتعرف تلك الديانة باسم : « المانوية » نسبة إلى زعيمها مانى الذى ظهر فى فارس سنة ٢١٥ م . وكانت تعاليم هذا الفارسي الجيئ تدفع الناس إلى الزهد ، بدعوى أن الحياة وهم زائل ، ولكن فى الحقيقة استهدف بالدعوى إلى هذا اللون الشاذ من الحياة صرف الناس عن العمل المنتج ، كما حثهم على عدم الزواج حتى يستعجلوا الفناء ، كما نهى عن ذبح الحيوان بحجة أن فى ذلك إيلا ماله ، وإنما استهدف بذلك إفساد الحياة الاقتصادية التى هى عماد المجتمع .

وتسلل أنصار هذه الحركة أولا بين الأتقياء والزهاد المخلصين حتى يكسبوا عطف الناس ويضمنوا إخفاء مفاسدهم . ثم بدأوا بعد ذلك استخدام سلاح الشك ، الذى هو رائد

الزنادقة ، وعمدوا إلى دفع الناس بذلك إلى طرق الحيرة والضلال . ومن أساليب أولئك الزنادقة : « انهم كانوا يظهرون للناس كراهية صيد الحيوان ، ويرون أن في ذلك قسوة بالغة ، وأن الصيد يؤدي بالناس إلى التهاون بالدماء ويشجعهم على سفكها » وعلي هذا النحو من المغالطة ، والمتنطق الفاسد الملى بالمقدمات الخاطئة انتشر الزنادقة بين سائر طبقات المجتمع ، إذ اعتبر الزنادقة إباحة ما حلله الله من أكل لحم الطير ، معادلا لإراقة الدماء ، وذلك إمعانا منهم في تشويه الحقائق .

واعتمد دعاة هذه الحركة التسليية الفاسدة على سلاح خطر لتنفيذ مآربهم ، إذ تبنوا طبقة من العلماء الفرس ، الذين لم يحترموا الأمانة العلمية ، وطلبوا منهم خلق موجة من الثقافة الجدلية ، تسهل على الزنادقة التسلل إلى الأوساط العلمية والتربوية العربية . وأعدوا في الوقت نفسه طبقة من مواطنهم الحاقدين على العرب ، وزوّدهم بالمعلومات العامة من شتى المعارف والفنون دون أن يتعمقوا فيها ، حيث أدت بهم هذه الترية الناقصة إلى الغرور ، والقدرة على الجدل والمراوغة والانتقال من موضوع إلى موضوع مبالغة في خداع الناس وإيهامهم بأنهم على علم غزير . ثم دفع دعاة التسلل هذه الفئة الحبيثة لتندس بين ندوات المجتمع العربي ،

واستغلال الجدل الذي يشهده العلماء الفرس المواليون للتسلل ضد الأمة العربية . وكانت خطة التسلل الاجتماعي تسير اولاً سيراً يبدو منه أنهم دعاة آراء حرة ، مستغلين حب العرب لحرية الرأي ، وإفساح صدرهم لكل فكرة تلقى في مجالسهم . فبدأ الزنادقة بذكر الأقوال الماثورة للفرس من نوادرهم وآدابهم . وأكثر الزنادقة من ترديد أمثال بزرجهر الفارسي ، وعهود أردشير . وبعد أن يطمشوا إلى اجتذابهم لأنظار المستمعين في المجالس تبدأ خطتهم المرسومة بالتسلل لإفساد التقاليد العربية والعمل على النيل منها . فكان الزنديق يحاول القيام بحركات مستهجنة حين يُذكر في تلك المجالس اسم شخص من كبار رجالات العرب ، أو علمائهم الأجلاء .

ووصف أحد المؤرخين طرق تسلل الزنادقة في المجتمعات العربية قائلاً : « فكان الزنديق إذا سمع اسم أحد من اصحاب رسول الله ، قتل عند ذلك شذقه ، ولوى عن محاسنهم كشحه ، وإن ذكر شريح ، وهو أحد الثقات في تاريخ العرب عمد الزنديق إلى تجريحه ، وإن وصف له الشَّعْبِي ، وهو من كبار علماء العراق ، استنقله . ويحاول الزنديق قطع مجرى الحديث عن تلك الشخصيات العربية بترديد سيرة ملوك الفرس ،

وعرضها في صورة تجذب انتباه السامعين ، وتنسبهم ايجاد العرب .
وعندما يحس الزنديق بأن الحاضرين ضجروا من قوله ،
أو اشمأزوا من إقحام سيرة غير العرب ، يلجأ إلى التويه
والأساليب الملتوية انتظارا لفرصة أخرى يستطيع التسلل منها
مرة أخرى .

وعمد الزنادقة في مجالسهم إلى استخدام كل الوسائل
التي تكفل لهم التسلل الهدام . فلم يتورعوا عن نسبة الشيء
إلى غير قائله ، والإكثار من ذكر الهجاء والنابي من القول
عند الحديث عن الشخصيات العربية . وتجلى ذلك في مجالس
الحليفة العباسي هارون الرشيد ، والذي علا في عهده شأن أسرة
البرامكة الفرس ، إذاشتهر في تلك المجالس الأصمعي العالم
العربي ، وأبو عبيدة الفارسي ، أما الأول فكان يتعد عن
ذكر اشعار الهجاء سموا بالمجتمع العربي عما يمتليء به هذا الشعر
من نابي الألفاظ « كأنه يرى أن ذلك يمس دينه ، وكأنه يرى
أن في الهجاء خطأ من شأن المهجو ، وبالتالي في ذلك مساس
بالعربية » . أما أبو عبيدة فعمد إلى استغواء الناس بسعة اطلاعه ،
وقلب الحقائق أو تشويهها اعتمادا على قلة خبرة المستمعين .
وبلغت الجرأة بالعلماء المتسللين درجة جعلتهم يزيفون الأحداث

التاريخية التي تتصل بأعجاد العرب . ومن ذلك أنهم وضعوا الكتب للبيئة بالمغالطات عن خصال العرب مثل الكرم والشهامة والبروءة ، فاعتبروا الكرم تبذيرا والشهامة تهورا ، والبروءة ضعفا وهكذا .

وتسّتر الوزراء الفرس في عهد الدولة العباسية على هذه الحركة التسلية ، وشجعوها في الحفاء . فاحتضن البرامكة مثلا على عهد الرشيد أحد قادة التسلل ، واسمه علان الفارسي ، إذ شجعوهم على تأليف كتاب يتناول سيرة العرب في الجاهلية ، مُظهرًا الخلافات التي دارت بينهم ، بما يثير الأحقاد ويجدد لها بين طبقات المجتمع العربي . ثم بدا الزنادقة يروجون لتلك الكتب المزيفة في المجالس الأدبية والعلمية التي امتلأت بها أيام العباسيين ، ويحاولون بذلك صرف العرب عن الاعتزاز بماضيهم والتغنى بما آثره .

وصاحب هذا التسلل الذي قام به العلماء الفرس تسلل آخر خطير استهدف النيل من قوة الخلق العربي . فال معروف أن الأخلاق المتينة هي السياج الذي يحمي المجتمع من الانهيار ، ويجعل أصحابها دائما مرفوعي الرأس ، وموضع الهيبة والاحترام عند جيرانهم . واشتهر العرب بتمسكهم بالفضائل والخصال

الحجدة والابتعاد عن الهزل المليء بالإسفاف . وسادت هذه المظاهر كل طبقات المجتمع العربي من أعلاها إلى أدناها دون أية تفرقة . ويؤثر عن الخلفاء العباسيين مراقبة كل مظهر للتسلل الخلقى ومنعه من الانتشار في محالهم ، ومحاسبة كل من يبدى أى لون من ألوان الإسفاف في حضرتهم حساباً عسيراً .

ولذا تسلل دعاة هدم التقاليد العربية عن طريق الوزراء الفرس ، الذين جعلوا من سيوتهم ملجأ للخلاعة والمجون وشرب الخمر . وكان البرامكة أيضاً مثالا لهذا التستر الذميم لدعاة الفساد ، كما تستروا من قبل على تسلل العلماء الفرس . وقد اكتشف أحد كبار رجال العرب بمحض الصدفة ما كان يدور في منازلهم من لهو وعبث . ذلك أن جعفر بن يحيى البرمكى خصص يوما للشراب ، وأحضر الخمر وندماء الذين يرتاح إليهم ، وأعد لهم خلوة تامة في منزله بعيدة عن أعين الرقباء ، وأمر حراس قصره بالألا يأذنوا لأحد من خلق الله بالدخول إلا لأحد الندماء ، واسمه عبد الملك بن صالح ، كان قد تأخر في الحضور . وجلس الجميع يلهون ويسكرون ، وقد لبسوا الثياب الحمراء والصفر والخضر ، إيماناً في الخلاعة والمجون .

وكان للخليفة هارون الرشيد قريب ، اسمه عبد الملك بن صالح

العباسي ، وذهب إلى قصر جعفر البرمكي في ذلك اليوم لقضاء بعض مصالحه . وكان هذا العربي الأصيل وقورا جليلا ، شديد الحشمة . وعندما وصل إلى دار البرمكي ظنه الحراس نديم جعفر البرمكي الذي تأخر في الحضور ، ومحموا له بالدخول . فلما رآه جعفر البرمكي كاد عقله يذهب من الحياء ، وادرك أن الأمر قد اشتبه على الحراس ، وأتاحوا بذلك لهذا الفساد أن يُعرف . وبذلك كشفت الصدقة المحضنة عما دار في منازل البرامكة من ، مساخر وتسلل ضد القيم الاجتماعية .

وزاد في تسلل الزنادقة خطورة أنهم شجعوا لعب الميسر بأنواعه ، ومنها المسابقات بين أنواع مخصوصة من الديكة ، يتراهن الناس على أيها يفوز في النضال . وكذلك انتشرت ألوان أخرى من المقامرة منها سباق الكلاب . وامتدت عدوى القمار إلى شتى الطبقات وصار الأمر خطيراً ، وأصبحت الحياة مهددة من كل ناحية بمفاسد الزنادقة ومساوئهم .

وفي وسط هذا التيار الما جن أخذت الزندقة تفصح عما في نفسها من كراهية للأمة العربية ، وتراثها وتقاليدها ، ذلك أن إدمان شرب الخمر أفقد الزنادقة السيطرة على عقولهم الواعى ، وجعل عقولهم الباطن يكشف عن كراهيتهم لماضى

العرب ، علي نحو ما عبر عنه أبو نواس الشاعر الفارسي ، وشيخ
الزنادقة الماجنين في قوله :

يكي على طلل الماضين من أسد
لا درّ درك قل لي من بنو أسد
ومن تميم ومن قيس ولفها
ليس الأعراب عند الله من أحد
دع هذا عدمتك واشربها معتقة
صفراء تفرق بين الروح والجسد

وتبع أبا نواس شعراء عديدون من الفرس الزنادقة ، منهم
بشار بن برد ، حاول كل منهم أن ينال من الأمة العربية حسب
استعداداته وقدراته ، وتولى بشار إشاعة الفحش بين الناس ،
والإساءة إلى الأسر العربية العريقة . وهكذا صار الأمر
خطيراً بسبب نشاط الزنادقة ، وتطلب الموقف حزمًا من السلطات
العربية وعلماء العرب كذلك ، لصد هذا التسلسل المخيف ، الذي
هدد المجتمع العربي أشد تهديد .

مطاردة الزنادقة

صاحب الزنادقة :

وضعت السلطات العرية خطة سريعة وحاسمة للكشف عن الزنادقة وهدم تسليهم . وكان لنلك الحطة شعبتان ، سارتا جنباً إلى جنب ، الأولى هى استخدام القسوة المتناهية فى ضرب قادة الزنادقة ، والثانية هى تكوين هيئة علمية لتنفيذ مزامعهم ، والرد على أقوالهم الفاسدة ، حتى يعود عامة الناس إلى رشدهم ، ويتخلصوا من الضلال ، الذى تردوا فيه .

ووضع الحليفة العباسى ، وهو أبو جعفر المنصور الذى قضى على التسلل السياسى ، خطة محاربة الزنادقة ، ورسم لحلفائه من بعده سبل القضاء التام على هذه العصابات الخطرة . فأنشأ ديواناً جديداً مهمته التحرى عن الزنادقة ، واقتفاء أثرهم بين مختلف الطبقات الاجتماعية ، ودراسة مدى استجابة الناس لأرائهم وأباطيلهم . واختار لهذا الديوان نفراً من أبناء الأمة العرية المعروف عنهم الحزم واليقظة العالية ، وكلفهم استئصال الجرائم الاجتماعية الخطرة . ولذلك أطلق على كل من يتولى شئون

هذا الديوان اسم «صاحب الزنادقة» ، دلالة على تفرغه الكامل لمطاردة هذه العصابات الاجتماعية الشريرة . ذلك أن السلطات العربية لم تشأ أن تعهد بمطاردة الزنادقة لرجال الشرطة أو غيرهم من رجال الأمن ، وإنما افردت لتلك المهمة شخصاً من خيرة رجالات العرب دلالة على الأخطار التي تهددت العرب وقوميتهم علي أيدي تلك العصابات الفاسدة .

ودلت تحريات ديوان الزنادقة على أن بيوت الوزراء الفرس ، صارت مراكز للتسلل الاجتماعي ضد الأمة العربية ، وأن أبناء أولئك الوزراء يسترون زندقتههم بادعائهم حفظ القرآن الكريم . واستدعى صاحب الزنادقة هذا الفر من الفاسدين ، وأجرى معهم تحقيقات ثبت فيها شرهم وخطرهم ، ولقوا جزاء صارماً . ذلك أن تهمة الزندقة كان عقابها الإعدام إذا ثبتت ، ولم يخفف الحكام العرب تلك العقوبة عن أى شخص أدين بها مهما كان مركزه أو أحواله . وتابع ديوان الزنادقة تحرياته كذلك بين البيوت العربية المتصلة بالفرس ، ومراقبة سيرة أبنائها ، والحيلولة دون امتداد جرثومة الزندقة إليهم . وجاءت التحريات بأن أحد أبناء تلك البيوت العربية ، وهو آدم حفيد عمر ابن العزيز موضع الشبهة في سيرته ، ويحشى أن يكون مشايحاً لتعاليم

الزنادقة . إذ دأب على شرب الخمر ، وتفوه بألفاظ غير كريمة ، وأمر الخليفة المهدي بإحضار هذا الشاب العربي ، وأجرى معه تحقيقاً بنفسه بعد أن أمر بضربه ضرباً مبرحاً .

ولكن هذا الشاب العربي نفى عن نفسه في شدة وإيمان بالنفس تهمة الزنادقة عنه ، وقال إن ما جاء به نتيجة وقوعه في خطأ السكر ، ثم ذكر للخليفة في اعتزاز بعروبه : ومتى رأيت يا أمير المؤمنين عربياً تزندق . ومع ذلك لم يأمر الخليفة بإطلاق سراح هذا الشاب العربي إلا بعد أن أخذت عليه التعهدات الكافية بالآي وضع نفسه مرة أخرى موضع الشبهة . وصار هذا المثل كذلك درساً قاسياً لكل من تحدّثه نفسه بالانزلاق في تيار الزنادقة أو يأتي من الأفعال ما يجعله زنديقاً .

وصارت سياسة مطاردة الزنادقة خطة مرسومة يوصى بها الخلفاء أبناءهم ، باعتبارها ركناً أساسياً من أركان الحكم ، مما يدل على خطر هذه الحركة التسليية . وعبر الخليفة المهدي عن تلك السياسة العربية لابنه وولي عهده الهادي ، وكان جالسا معه في محادثة أحد الزنادقة ، إذ أتى الخليفة تخفيف الحكم بالإعدام الذي صدر على هذا الزنديق ، ثم اتجه إلى ولي عهده ، وقال له : « يا بني إن صار لك هذا

الأمر (اى الخلافة) ، فتجرد لهذه العصابة « وهم الزنادقة » ، فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن ، مثل الزهد فى الدنيا وتحريم اللحم ، ثم تخرج بعد ذلك إلى نشر مومها لمن يقع فى حبائلها ، وتدفعهم إلى الظلمات . فارفع فيها الخشب (اى المشانق) وجرد فيها السيف ، وتقرب بأمرها إلى الله . وكان الهادى عند حسن ظن أياه ، حيث طارد الزنادقة مطاردة شديدة ، وكذلك فعل خليفته هارون الرشيد حتى استطاعت السلطات العربية أن تضع يدها على قادة التسلل الاجتماعى ، وضبطت عندهم الكثير من الكتب التى تشرح آراء الزنادقة ، وترسم أساليب التسلل بين الناس : وبدأ تيار التسلل الاجتماعى ينحسر أمام سلطان « صاحب الزنادقة » ، ونشاطه فى القضاء على هذه العصابات الخطرة ، ونجت القومية العربية من جرثومة فاسدة كادت تمتد إلى ابناءها ، والقومة على سلامتها .

نشر الوعي الثقافى :

وإلى جانب « صاحب الزنادقة » اتحدت السلطات العربية وسائل علمية للقضاء على الآثار السيئة التى تركتها حركة الزنادقة فى المجتمع ، لأن انتزاع العقائد الفاسدة لا يكون إلا عن طريق نشر الوعي الثقافى ، ليدرك الجميع عن اقتناع ضرر السموم التى

نشرها أعداؤهم . ذلك أن نقرأ من الزنادقة وضع كتبنا في العلم والسياسة والأدب ، أخفوا بين سطورها تعاليمهم ، وتأثر بها نفر من الشباب العرب ، وأصبحت الضرورة تقضى تنفيذ ما جاء بتلك الكتب من أكاذيب ، وتطهير العقول من آثارها .

وألقت السلطات العربية هيئة علمية ، ضمت العلماء والفقهاء وغيرهم من كبار رجال الدولة من ذوى الثقافة الواسعة ، لمناقشة من يقع في أيديهم من المتهمين بالزندقة وتنفيذ كلامه وحججه الرائقة . وكانت هذه المناقشات العلمية أشبه بالمحاكمات العلنية حتى يتبين الناس جهارا السوايا السيئة التي يستهدف الزنادقة إلحاقها بقوميتهم . وكان لتلك الهيئة العلمية الفضل الكبير في اكتشاف كبار الزنادقة ، ولا سيما العلماء منهم ، وهتك الأستار العلمية التي اختفوا وراءها . واشتهر من هيئة العلماء المكلفة بالتحري عن الزنادقة والرد على أقوالهم « واصل بن عطاء » إذ دأب على دراسة كتب الزنادقة ، وتنفيذ أباطيلها ثم الرد عليهم ، ووضع الكتب التي تهدي الناس إلى الخير والرشاد . وذكرت امرأته شدة جهاده في ذلك السبيل قائلة : « كان إذا جنَّ الليل ، يصف قدميه ويصلى ، ولوح ودواة موضوعان أمامه ، فإذا مرت فيها حجة على مخالف جلس فكتبها ، ثم عاد إلى صلاته » . وروى

أحد العلماء أنه قرأ الجزء الأول من كتاب واصل في الرد علي الزنادقة ، ووجد أنه حافل بالحجج الدامغة التي جاءت ثمرة الدراسة الواسعة الدقيقة .

وفي الوقت نفسه وضع واصل طريقة أخرى كان لها أثرها في سد السبل أمام تسلل الزنادقة ، إذ لم يكتف بالتأليف في سبيل الرد علي الزنادقة، وإنما أرسل الكثير من تلاميذه إلى جميع الجببات لتنفيذ أقوال الزنادقة ولاسيا في مراكز تسلمهم نفسها في فارس . ولم يتردد هو نفسه عن السفر إلى المناطق النائية ، ضاربا المثل الأعلى علي خدمة العلم والعلماء في سبيل حماية الأمة العربية ، والدفاع عنها ضد أعدائها . وصارت مجهودات واصل بن عطاء المدرسة التي تخرج منها كثير من العلماء الذين حملوا راية الكفاح من أجل إعزاز العروبة، وسد كل السبل أمام أعدائها الهدامين .

وبلغت هيئة العلماء العرب أعلى درجاتها وتنظيمها في عهد الخليفة المأمون العباسي ، ذلك ان الزنادقة انتهزوا الفوضى التي سبقت عهده بسبب النزاع بينه وبين أخيه الأمين ، ونشطوا في نشر سمومهم ضد القومية العربية . ولذا أمر غداة استقرار الأمور له في بغداد بجمع العلماء وتنظيم نشاطهم لحماية المجتمع

العربي . وجعل رئاسة تلك الهيئة إلى أحد العلماء وهو يحيى ابن أكثم ، الذي شرح سياسة الخليفة قائلاً :

«أمرني المأمون عند دخوله بغداد أن أجمع له وجوه العلماء والفقهاء وأهل العلم من أهل بغداد ، فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلاً وأحضرتهم ، وجلس لهم المأمون يسأل عن مسائل وأفاض في فنون الحديث والعلم . فلما انفض ذلك المجلس قال المأمون : إني لأرجو أن يكون مجلسنا هذا — بتوفيق الله وتأيدته على إتمامه — سبباً لاجتماع هذه الطوائف على ما هو أرجى وأصلح للدين ، إما شاك فينقاد بعد أن يتيقن ، أو معاند فيرد بالعدل كرهاً » . وترتب على جمع العلماء في صعيد واحد سد كل السبل أمام تسلسل الزنادقة ، وفي الوقت نفسه تزويد شباب العرب بالآراء السليمة التي تبكسبهم منعة وعزة ، وتساعدهم على متابعة جهادهم في الدفاع عن أمتهم وبلادها .

واشتهر في جهاد أولئك العلماء «أبو الهذيل العلاف» ، الذي تمكن من إخماد أحد كبار الزنادقة واسمه صالح بن عبد القدوس ، في إحدى مناقشاته معه . ذلك أن صالح توفي له ولد ، ورآه أبو الهذيل حزيناً ، فسأله ولماذا تحزن ؟ . فاتهز الزنديق هذه الفرصة ليُعَبِّرَ عن آرائه الفاسدة ، إذ اجاب : إني لست


حزينا على وفاة ابني ، وإنما انا حزين لأنه مات قبل أن يقرأ
 كتاب الشكوك . فقال أبو الهذيل ، وما كتاب الشكوك ؟ . قال
 الزنديق : كتاب وضعته ، من قرأ فيه شك فيما يتوهم حتى يظن
 أنه لم يكن ، وفيما لم يكن ، حتى يظن أنه كان . قال أبو الهذيل .
 فشك أنت في موت ابك ، وافرض أنه لم يمت ، وإن كان
 قد مات ، وشك أيضاً في أنه قرأ ذلك الكتاب وإن كان لم يقرأ .
 وهكذا انتزع العلماء العرب الأسلحة من أيدي دعاة التسلل
 الاجتماعي ، وتركوهم وحدهم في اللبدان يلقون مصرعهم ، بعد
 أن نفر منهم أبناء الأمة العربية ، وحفظوا للقومية العربية هيبتها
 وسلامتها على أساس راسخ ، هو أساس العلم المتين ، الذي
 لا يستطيع الباطل أن يأتيه من بين يديه أو من خلفه .



حركات التسلل الإستعماري

الصهيونية

جماعة الفريسيين أو مهر الصهيونية :

حركات التسلل ضد القومية العربية على اختلاف  ألوانها إلى العودة إلى الماضي البائد تلتبس بين أطلاله الخبرة ، ونبوءاته المدثرة ما يساعدها على كسب الأنصار حولها ، ثم استفلاهم لتحقيق الأطماع التي تجيش بها نفوس قادتها الفاسدين . وسارت على هذا النهج « الصهيونية » ، التي تعتبر أخطر حركات التسلل التي تواجهها القومية العربية في الوقت الحاضر . وترجع أصول هذه الحركة إلى « جماعة الفريسيين » ، أي « المنافقين » ، وهو الاسم الذي أطلقته عليهم كتب التاريخ ، على اختلاف الأزمان والعصور . وتكونت هذه الجماعة السرية من بعض علماء اليهود ، عقب تشتيت اليهود

انفسهم فى سائر أرجاء الأرض ، بسبب غضب الله عليهم ،
لخروجهم على تعاليمه الصحيحة ، التي جاءهم بها نبيه موسى الكليم .
إذ بدأت « جماعة المنافقين » تعمل منذ ذلك الوقت المبكر
من فجر التاريخ علي تضليل اليهود ، واستغلال العامة منهم بنشر
الأماني والوعود الكاذبة بينهم ، والتي تكفل لهم السيطرة
على سائر أرجاء العالم ، الذي تشتتوا فيه .

وتسللت « جماعة الفريسيين » عن طريق تحريف التوراة ،
كتاب الله ، وتفسيره تفسيراً يتفق ومبادئهم الهدامة . والوسيلة
التي اتبعوها للوصول إلي تلك النتيجة هي الوسيلة نفسها التي لجأ
إليها دعاة الباطنية ، حين أسسوا حركات التسلل التي قام بها جماعة
الحشاشين والقرامطة . فادعى الفريسيون أن الكتاب المقدس
لا يعنى معناه الحرفي ، وإنما يمكن وراء المعاني الظاهرة دلالات
باطنية لا يستطيع الجهال معرفتها إلا عن طريقهم . واستطاعوا
بذلك جمع السلطة فى أيديهم ، بالسيطرة على مقاليد الأمور
فى مجلس الحكم اليهودى ، المعروف باسم « السانهدرين » ،
والذى صار منظمة سرية كبرى ، يتلقى منه سائر اليهود فى كل
مكان التوجيه ، وينفذون تعاليمه .

واستهل المنافقون أعمالهم الخطرة بتملق جماهير اليهود وذلك

بتلقيهم أسس الغرور العنصرى . فحرفوا تعاليم التوراة بحيث جعلت اليهود يعتقدون أنهم شعب الله المختار ، وما عداهم من سائر البشر «جُويم» ، أى غير يهود ، وأجاس تقف مع الحيوانات فى مرتبة واحدة . وجاء هذا الغرور العنصرى ردًا فعل لتثريد اليهود ، وحقدهم على سائر الأمم المجاورة لهم ، والتي كانت تنعم بالوحدة والاستقرار . وأعقب قادة هذه الجمعية السرية أعمالهم العنصرية بنظرية أخرى لتدعيمها ، وهى أن رئيسا من اليهود سوف يظهر وينتقم من جميع الشعوب ويخضعها لهم .

وتصدى لدحض هذه الأكاذيب الخطرة كل من المسيحية والإسلام فكشف المسيح ، عليه السلام ، الحجاب عن مرآة ليهود وأباطيلهم ، ودفع هو وأتباعه ثمنا باهظا فى سبيل تحذير البشرية من سموم أولئك اليهود .

وأظهر القرآن الكريم نفاق اليهود كذلك ، وشهّر بأولئك الذين (يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون هذا من عند الله) ، وجاهدتم فى كل مكان ، ولذا وجد اليهود فى كل عصر يقظة تامة لدسائسهم ، ولم يستطع قادة مؤامراتهم أن يحققوا لهم السيادة التى خدعواهم بها ،

ولم تنجح أعمال العنف التي جنحوا إليها في سبيل تنفيذ ما ربههم النصرية .

ولما تبين لهذا النفر من المنافقين اليهود أن الاستيلاء على العالم ليس بالسهولة التي تخيلوها ، اتجهوا إلى تكوين الجمعيات السرية ، شأنهم في ذلك شأن القرامط وجماعة الحشاشين من قبل ، وجعلوا أهدافها إشاعة الفساد والانحلال في نفوس الأفراد والجماعات ، حتى إذا عم الفساد جميع الشعوب فاصبح العالم طوع بنانهم ويسهل عليهم بالتالي التسلل إلى شتى أرجاءه كما يحلو لهم ، والسيطرة عليه آخر الأمر .

ومن أجل ربط هذه الجمعيات السرية اليهودية بعضها ببعض ، ودوام نشاطها وضع الفريسيون للمناققون لها تعاليم تناقلوها شفاها مخافة أن يطلع عليها غيرهم . ولما تعددت تلك الجمعيات وانتشرت في سائر أرجاء العالم خاف قادة التسلل منهم ان تضع تلك التعاليم ، وقام نفر منهم بتدوينها في كتاب يسهل تداوله . ثم تناول المناققون اليهود إضافة الشروح والآراء التي تحقق أهداف حركتهم التسللية إلى هذا الكتاب السام ، وأكسبوه صفة التقديس ، حتى صار يتناوله الحلف عن السلف من اليهود ، إلى أن صار دستور حركة التسلل الاستعماري ، التي تضطلع

بها الصهيونية في الوقت الحاضر ضد القومية العربية . ولذا يقتضى فهم حركة الصهيونية عرض أهم الآراء التي جاءت في ذلك الكتاب ، الذى أطلقوا عليه اسم « التلمود » أى « السنن للورثة » التي وضعها أسلافهم الحاقدون على البشرية .

« التلمود » أو حقيقة الصهيونية :

تعر الآراء التي جاءت في التلمود تعبيراً صريحاً عن الصهيونية ، وتوضح طبيعة التسلل الذى تقوم به تلك الحركة الخطيرة في الوقت الحاضر ضد القومية العربية والعالم أجمع كذلك . وظهرت نسخة من التلمود سنة ١٥٢٠ في البندقية ، وتكون من اثني عشر مجلدا كبيرا . وأحدث توزيع هذا الكتاب سخطا في شتى أرجاء العالم بسبب ما جاء فيه عن آراء اليهود في سائر الشعوب الإنسانية . ولذا اجتمع أجبار اليهود ، وقرروا حذف الفقرات التي اغضبت سائر الناس من اليهود ، ولكن طلبوا في الوقت نفسه من أتباعهم ان يترك كل فرد « مكان هذه الفقرات خاليا حتى يستطيع اليهود بعد ذلك أن يثبتوها فيه بخط ايديهم ، او أن يوضع في مكان كل منها دائرة ، لتشير إلى الحذف ، مع التنبيه على الأحبار ومعلمي المدارس

أن يكتفوا بتلقينها للشباب وللتلاميذ شفها وبهذه الوسيلة نستطيع أن نصل إلى أهدافنا دون إثارة الأعداء علينا .

وينص التلمود على غرور اليهود ، وعهد لانتزاع الشفقة من نفوسهم ، وهو الأمر الذي يوصم به الصهاينة في الوقت الحاضر . وقد ذكر التلمود في منطق خاطيء فاسد — يبدأ بمقدمات خاطئة تسلم بدورها إلى نتائج خاطئة — قوله : « لا مراة في أن الأشياء تختلف بعضها عن بعض . فالنبات والحيوان لا يمكن لهما وجود دون عناية الإنسان . وكما أن بني الإنسان يسممون على الحيوانات ، فإن اليهود يسمون على شعوب الأرض جميعاً » . « إذ أن هؤلاء الشعوب من بذرة حيوانية » ، وعلى هذا الأساس الخطير الفاسد في الوقت نفسه ، بدأ التلمود يرسم لأتباعه طرق التسلل على نحو ما تقوم به الصهيونية اليوم ، فقال : « يجب على الإنسان (أى اليهودى) أن يتذرع دائماً بالمكر في تنفيذ لوصايا الله : فيلقى التحية على غير اليهود ، وفسر المنافقون هذا القول بأن خداع غير اليهود واجب ، ولكي يؤدي ذلك دون أن يكتشف أمره فعليه أن يزور جيرانه ، ولكن ليس من أجل اكتساب ودهم ، وإنما للإيقاع بهم ، ومعرفة مواطن الضعف عندهم .

ورسم التلمود لليهود عددا من الوسائل الملتوية التي يحققون بها اغراضهم الكبرى ، وهى السيطرة على العالم . ومن تلك الوسائل استغلال الربا لتجريد العالم مما يملك . فقال التلمود : « أمرنا الله أن نستخدم الربا مع غير اليهود وأن نقرضهم المال بالفائدة لكي نصيبهم بالأذى بدلا من أن نقدم لهم المعونة ، حتى ولو كانوا يساعدوننا ويخلصون لنا » . واشتهر اليهود بالربا طول العصور التاريخية حتى إن ألمانيا ، قبل الحرب حرمت على اليهود أن يقرضوا بأكثر من ٤٣ ٪ ، بعد أن كانوا يقرضون بسعر يزيد على ٦٠٠ ٪ . ثم إن التلمود نص على أن الربا عنصر أساسي من الحياة اليهودية ، والسبيل الأول لسيادة اليهود على العالم ، ولذا وضع قاعدة لتربية أبناء اليهود عليه ، إذ أوصى كل يهودي أن يقرض أولاده بالربا « حتى يستمرؤوا طعمه ولا يستطيعوا التخلي عنه » .

وفي الوقت نفسه يعتبر التلمود كتاب الكذب والخداع والنصوية والغدر والاحتيال ، وبالتالي عنوان الأخلاق الصهيونية ، ونبراسها في الحياة العالمية . فلم يكتف التلمود بمحت اليهود على استخدام الربا فحسب ، وإنما نص أيضا على غش الناس في البيع والشراء . وضرب مثلا على ذلك بأحد كبار اليهود ،

إذ قابل شخصا غير يهودى ، ومعه قارورة من الذهب الإبريز ،
فما زال به حتى أقنعه بأنها من النحاس الأصفر واشتراها منه
بأربعة دراهم ثم لم يكتف بذلك ، وإنما سلبه درهما عند الدفع .
وذكر التلمود أن يكون شعار اليهود مع غيرهم من الناس
هو الكذب ، وشرح أجبارهم ذلك الكذب بقولهم : « إذا
أخطأ واحد من اليهود فى العدد واستفهم من اليهودى عما إذا
كان العد مضبوطاً ، وجب على الأخير ألا يجيبه بلا أو بنعم ،
بل يقول له اليهودى لا أدرى ، لأنه قد يكون أخطأ عامدا لكي
يختبر أمانته ، » . ودعم قادة النفاق اليهودى خلق الخداع
فى نفوس جماعته بأن نص على أن يجتمع اليهود يوم السبت
من كل أسبوع ، « ليحتفلوا بمحذقهم فى الخداع » .

وأباح التلمود لليهود عدم احترام العهود والمواثيق ، وقدم لهم
النصائح التى تعفيهم ، وتحلهم من أى قسم يمكن أن يرتبطوا به ،
فقال : يكفى على كل يهودى أن يضيف إلى أى قسم يتلوه أمام
أية مجموعة من الناس أن يتمم سرا فى نفسه كلاما يناقض تعهده .
وقال فى ذلك احداثيون النفاق اليهودى ، يكفى اليهودى ، لكي
يتحلل من قسمه دون حنث وهو يقسم أن يقول : « إن هذا القسم
غير نافذ المفعول » . ثم إن اليهود لا يخرجون من هذا الحلق

الذميمة وإنما يقيمون عيداً سنوياً اسمه عيد الغفران ، أو « يوم
قبور » ، ويقف فيه الحاخام الأكبر ويعلن دون حياء : « ولتغفنا
يا الله من الوفاء بجميع العهود والمواثيق التي قطعها على أنفسنا
والآيمان التي تنفوه بها ابتداء من يومنا هذا حتى اليوم المماثل له
من العام القادم ، واجعلها عديمة الفاعلية ، عديمة القيمة
كانها لم تكن » .

هذا ووضعت جماعة الفريسيين في كتابها التلمود أسس معاملة
اليهود للبشرية كلها ، واستطاعت أن تخلق من بين اليهود أنصاراً
لحركاتهم التسليية من أجل تحقيق مطامعهم . وفي أواخر القرن
التاسع عشر ، ظن القائلون على هذه الجمعية السرية أن الوقت
قد حان للبدء في التسلل المهدام وتنفيذ ما سبق أن يتوه
من غدر . فكشفوا النقاب عن وجوههم تحت اسم « الصهيونية » ،
وأخذوا يُفسِّسون عن حقدهم بالعمل على إنشاء وطن قومي
لليهود ، وذلك في فلسطين أولاً ، ثم إدخال الأقطار العربية
المجاورة في نطاقه ثانياً ، وأخيراً السيطرة على سائر أرجاء العالم .
فالصهيونية التي تواجهها القومية العربية اليوم هي جماعة الفريسيين ،
في ثوب جديد يتفق والعصر الحاضر ، وشعارها في معاملة تلك
القومية هو شعار التلمود وتعاليمه ، بما فيها من تعصب عنصري ،

وكذب ولصوصية وخداع ، وحب لسفك الدماء دون شفقة
أو رحمة . فالصهيونية تحاول أن تحقق تعاليم التلعود كلها ،
متوسلة في ذلك بآخر تعاليمه التي تنزع كل شفقة من نفوسهم .

تسلل الصهيونية إلى الشرق العربي

تحت ستار الاستعمار الأوربي

مخالف الصهيونية مع الاستعمار البريطاني :

يعتبر القرن التاسع عشر ، الذي شاهد ظهور الصهيونية ،
مرحلة خطيرة في تاريخ القومية العربية . ذلك أن معظم البلاد
العربية كانت خاضعة إذ ذاك للأتراك العثمانيين ، الذين كَسَوْا
أَخَوْتَهُم للعرب في الدين الإسلامي ، وعملوا على حكم تلك البلاد
حكما طاغيا استغلاليا . وكان الاستعمار الأوربي ينظر إلى سوء
حكم الأتراك العثمانيين في البلاد العربية بعين ملؤها الرضى ،
لأنه طمع إذ ذاك في انتزاع تلك البلاد لنفسه ، والقضاء في الوقت
نفسه على دولة العثمانيين كذلك . واستهلت إنجلترا في القرن
التاسع عشر تلك السياسة الاستعمارية الأوربية ضد كل من العرب
والعثمانيين . واتهمز الإنجليز سوء حكم أسرة محمد على ، وخيانة

الخدوي توفيق ، واحتلت مصر في أواخر القرن التاسع عشر
(١٨٨٢) .

ولم تلبث الأحداث بعد ذلك أن مهدت لانجلترا القضاء
على حكم العثمانيين للبلاد العربية ، ووضعها تحت وطأة الاستعمار
الأوربي . إذ حدث في مطلع القرن العشرين تجمع سحب
الحرب العالمية الأولى ، بين ألمانيا من جهة ، وانجلترا وحلفائها
من جهة أخرى وتوسل كل من الفريقين للمتنازعين بشتى
الطرق ، مشروعة كانت أم غير مشروعة لاكتساب الأنصار
والفوز في الحرب . وكانت انجلترا تدرك في ذلك الوقت سخط
العرب على الأتراك ، وثوراتهم للتكررة علي حكمهم الغاشم .
ولذا ما كادت تركيا تنضم إلى جانب ألمانيا في الحرب حتى
بادر الإنجليز إلى الإتصال بالعرب وطلب مساعدتهم في نضالهم
ضد كل من تركيا وألمانيا . ودخل الإنجليز في مفاوضات مع
الشيخ حسين أمير مكة ، نظرا لمكانته في السياسة العربية
في ذلك الوقت ، وبعثت إليه بعدة رسائل عن طريق ممثلها في
مصر إذ ذاك وهو هنري مكماهون .

واتفق الجانبان العربي والبريطاني على أن يشترك العرب
في الحرب إلى جانب انجلترا مقابل اعتراف تلك الدولة باستقلال
البلاد العربية الواقعة ضمن الحدود التالية :

شمالا : خط مرسين — أطنه حتى درجة ٣٧ شمالا ، ومنها
على امتداد أدرنه — ماردين حتى حدود فارس .
شرقا : الحدود الفارسية حتى الخليج العربي .
جنوبا : المحيط الهندي خلا عدن .

غربا : البحر الأحمر والبحر المتوسط حتى مرسين .
وفي الوقت نفسه أقدمت تركيا على خطوة خطيرة دفعت
العرب إلى الثورة ضدها ، ذلك أن الحاكم العثماني على الشام
أعدم عددا من الأحرار العرب ، وقطع بذلك كل أمل للبلاد
العربية في تركيا . ولذا دخلت الجيوش العربية إلى جانب إنجلترا
في الحرب ضد ألمانيا وتركيا .

وبينا تتقدم إنجلترا نحو النصر في الحرب العظمى الأولى
بفضل مساعدة العرب ، وقعت أحداث التسلسل الصهيوني
إلى الشرق العربي تحت ستار الاستعمار الأوروبي ، حيث وجد
كل من هذين الطرفين في التحالف معا سبيلا لتحقيق مآربهما
الفاصلة ضد القومية العربية . واتخذت مراحل هذا التحالف
الدنيء طابع الغدر ، الأمر الذي ما زال قائما بين أعداء القومية
العربية إلى اليوم . ذلك أن إنجلترا عقدت مع فرنسا اتفاق
« سايكس — بيكو » ، في مارس سنة ١٩١٦ ، من أجل

اقتسام البلاد العربية بينهما بعد انتهاء الحرب ، دون احترام
للعهود التي سبق أن قطعها الإنجليز على أنفسهم لشريف مكة .
ووضح هذا الاتفاق طلائع التحالف بين الصهيونية والاستعمار
الأوربي ، والذي بلغ أشده في الوقت الحاضر .

استغلت إنجلترا اتفاق سايكس — يكو لجذب الصهيونية
إلى جانبهم في الحرب ، على حساب البلاد العربية كذلك .
فنصت إنجلترا في الاتفاق السالف الذكر على أن تبقى فلسطين
خارج نطاق التقسيم مع فرنسا ، وتقرر أن يوضع لها نظام دولي ،
مع السماح لإنجلترا بالإشراف على مينائي : حيفا وعكا . وكان
المهدف من ذلك إسالة لعاب الصهيونية التي اشتد نشاطها في ذلك
الوقت ، وبالتلويح لها بفلسطين . ثم لم يلبث الإنجليز أن كشفوا
عن تحالفهم الصريح مع الصهيونية نفسها ، وذلك قبل نهاية
الحرب العظمى ، عامدين إلى الغدر بالعرب مرة أخرى ،
ذلك أن بلفور ، وزير خارجية إنجلترا ، أصدر في نوفمبر
سنة ١٩١٧ وعده المشهور ، الذي يسمح لليهود بإقامة وطن قومي
لهم في فلسطين العربية .

وهكذا اتفقت أهداف كل من الاستعمار الأوربي مع مطامع
الصهيونية ، وذلك ضد القومية العربية . إذ استهدفت إنجلترا

بخلق وطن قومي لليهود في فلسطين خلق قوة معادية ليقظة
القومية العربية ، وتهديدها بحيث تجعل تفكيرها دائماً في شغل
عن مناهضة الاستعمار الأوربي . فأدرك الإنجليز من مفاوضاتهم
مع العرب أنهم أمة لها ماضيها المجيد ، وحاضرها الزاهر ،
وأنهم لا يمكن أن يقبلوا بأى حال من الأحوال غض الطرف
عما نزل بهم من غدر واستعمار . ولذا فإن استمرار
الاستعمار للبلاد العربية يتطلب خلق قوة تقوم بمهمة أشبه
« بكلب البستاني » يندفع في الجهات المجاورة له ، بحيث
يشير فيها الاضطراب ، ويشغلها عن العناية بأمورها الهامة .
أما الصهيونية فرأت أنها لن تستطيع التسلل إلى الشرق
العربي وحدها ، لأن سيف القومية العربية تار ، وأنه سبق
أن قضى على مثيلاتها من حركات التسلل ، وأبقى للعرب عزهم
وكرامتهم ، ثم إن العهد الذي يستطيع فيه أعداء القومية العربية
أن يتسللوا فيه عن طريق الخداع العقائدى أو السياسى قد انتهى ،
وأن العرب صاروا على جانب من الوعي القوى الذى يهتك
أمثال هذه الحركات فى الوقت الحاضر . ولذا قبلت الصهيونية
هذا التحالف مع الاستعمار ، لأن كلا منهم أشبه بمصابة
للصوص ، التى لا هدف لها إلا اقتسام الأسلاب ، دون البحث

عن المبادي أو القيم ، التي لا وجود لها مطلقا عند أصحاب النفوس
الخبثة الشريرة .

الفسل الصهيوني إلى فلسطين :

كان الاتفاق بين الصهيونية والاستعمار البريطاني ، والذي
تجلت مظاهره في وعد بلفور نقطة تحول في حركة تسلسل
الصهيونية إلى الشرق العربي ، إذ كان قادة الصهيونية يزورون
فلسطين قبل وعد بلفور خفية ، يدرسون أحوالها ، شأن أعمال
المظلمات السرية ، ويعودون إلى عصاباتهم يتدارسون فيما بينهم
خطط العمل . فذهب موسى مونتيفور ، أحد دعاة الصهيونية
إلى فلسطين سنة ١٨٢٧ ، وعاد بالآمال العراض عن سلب تلك
البلاد ، وتهيئة الجو فيها لإقامة اليهود . وتلا هذه الزيارة
الصهيونية ، موحة من المؤلفات الصهيونية تكشف عن تاريخ
اليهود ، وما لاقوه من متاعب واضطهاد على أيدي السلطات في
كل مكان ، وذلك بغية إثارة نفوس اليهود ، وحثهم على مساعدة
الحركة الصهيونية ، ومن هؤلاء الدعاة الصهاينة موسى هيس ،
الذي دَوّن تاريخ اليهود مع روما ، وملاً كتاباته بالدعوة إلى إقامة
اليهود في فلسطين ، وكذلك ليونسكي من أهالي أودسا ، حيث

شارك في تنظيم الحركة الصهيونية ، وتوجيه نشاطها إلى فلسطين . ولم تقتصر حركة الصهيونية علي الدراسات فحسب ، ولكن صاحبها تسلل على تجاه فلسطين ، إذ رأى قادة الصهيونية أن يمهّدوا لحركتهم بإنشاء مستعمرات زراعية لهم في فلسطين ، تحت ستار شراء الأراضي ، وتعليكها لليهود المقيمين هناك ووضع أساس هذه الخطوة الخطيرة موسى مونتيفور ، الذي سبق أن زار فلسطين لاستكشاف أحوالها ، ودعا سنة ١٨٥٤ إلى قيام تلك المستعمرات . وتطلب تنفيذ هذه الخطوة جمع المال من اليهود المنتشرين في سائر الأنحاء . وكان اليهود هم أصحاب رؤوس الأموال في أوروبا ، ولهم بيوت مالية كبرى تتحكم في اقتصاديات تلك البلاد . واستطاعت حركة التسلل الصهيوني أن تجد في الرأسمالية اليهودية معينا على تحقيق أطماعها في فلسطين وكان بيت البارون روتشلد اليهودي الألماني أكبر ممول لتلك الحركة ، وأغدق الكثير على حركة المستعمرات اليهودية في فلسطين . وسرعان ما قامت بيوت يهودية أخرى بما قام به بيت روتشلد ، وصارت الصهيونية بذلك على أبواب خطوة جديدة أخرى خطيرة ، من أجل الهجوم على القومية العربية .

ووضع أساس الخطوة الصهيونية الجديدة هر تسل اليهودي ،

إذ رأى أن الصهيونية لن تنجح في محاربتها للقومية العربية إلا إذا خُلِقَت قاعدته يهودية في فلسطين . و نادى بفكرته الجديدة في حركة التسلل الصهيوني بأن دعا سنة ١٨٩٦ ، في كتاب له بأن يقوم اليهود بالمجرة على نطاق واسع إلى فلسطين ، والعمل على انتزاع أرضها من أيدي العرب ، سكان البلاد الأصليين . وصارت دعوة هذا الصهيوني الحبيث أخطر شطر في حركة التسلل الصهيوني ضد القومية العربية ، والعنصر الذي ظهر فيه التعاون بين تلك الحركة والاستعمار على نطاق واسع . إذ بدأت الدول الاستعمارية تشجع هجرة اليهودية من بلادها إلى أرض فلسطين ، كلما أرادت تهديد العرب ، أو الضغط عليهم سياسيا واجتماعيا . وتحددت بذلك أهداف الحركة الصهيونية ، حيث انعقد مؤتمر لعصابتها في مدينة بازل سنة ١٨٩٧ ، تقرر فيه ما يلي :

أولا : العمل على تشجيع هجرة اليهود واستقرارهم في فلسطين كزراعين وصناع وتجار .

ثانيا : تنظيم اليهود في كل أجزاء العالم وإنشاء لجان خاصة لتأييد الصهيونية .

ثالثا : تقوية الشعور القومي لدى اليهود .

رابعاً : العمل على اكتساب الحكومات المختلفة إلى جانب الصهيونية ، واستخدام شتى الوسائل ، مشروعة كانت أم غير مشروعة ، من أجل تحقيق ذلك الغرض .

وتكونت عقب ذلك المؤتمر شركات يهودية لتمويل الحركة الصهيونية ، ومساعدتها على تحقيق مآربها في فلسطين ، منها الوكالة اليهودية الأهلية لشراء الأراضي في فلسطين . وأخذت الدول الاستعمارية الأوربية تعطف على تلك الجمعيات الصهيونية ، من أجل تنفيذ مطامعها الاستعمارية في البلاد العربية . وكانت إنجلترا هي المرتع الحبيب للحركة الصهيونية ، وتشجيع تسليها ضد القومية العربية . ذلك أن إنجلترا لها مطامع واسعة في البلاد العربية ، وتريد استغلال التسلل الصهيوني لصالحها . وشجع هذا الميل الإنجليزي إلى الصهيونية قيام الحرب العالمية الأولى ، وانضمام تركيا إلى ألمانيا ضد إنجلترا في تلك الحرب . إذ لما كانت فلسطين جزءاً من أملاك الدولة العثمانية إذ ذاك ، صار كل من الإنجليز والصهاينة يتطلعون إلى ذلك البلد الأمين ، بغية تحقيق مآربهما الاستعمارية على حسابه ، وحساب أهله العرب المسلمين .

وبذلك اتخذت حركة التسلل الصهيوني مركزاً لها في إنجلترا حيث أدار قادتها - مثل ناحوم ويزمان - دفة الهجوم على القومية

العربية ، واخذوا ينتظرون انتهاء الحرب العالمية الأولى لبدء التسلل المهدام . وحصلت العصابات الصهيونية من الاستعمار البريطاني إذ ذاك ، أى قبيل انتهاء الحرب على وعد بلفور ، وكشفت القناع عن مؤامراتها ضد القومية العربية . فأكادت الحرب تضع أوزارها حتى تكونت في ٣ فبراير سنة ١٩١٩ لجنة فيها ويزمان اليهودى لوضع الحطة التى تحقق التسلل الصهيونى إلى فلسطين . واقترحت تلك العصبة أن تعهد الأمم إلى بريطانيا بالانتداب على فلسطين ، من أجل العمل على قيام وطن قومى لليهود بها ، وتكوين دولة يهودية هناك كذلك . ونجحت الصهيونية فى حمل عصبة الأمم على إصدار قرار يضع المقترحات السالفة موضع التنفيذ ، وصار التحالف بين الصهيونية والاستعمار البريطانى على أشده ضد القومية العربية .

وكان أخطر مظاهر التعاون الصهيونى البريطانى المبكر هو تنظيم انجلترا للهجرة اليهودية إلى فلسطين ، وتسهيلها سبل العمل والارتزاق لأولئك المهاجرين اليهود فى فلسطين ، وكذلك إقامة المساكن لهم وإتاحة المتاجرة وشراء الأرض هناك . وتمت تلك الحطة بتهجير ١٠ آلاف يهودى سنويا إلى فلسطين التى أسسوا بها ١٢٠ مستعمرة ، منحها الاستعمار البريطانى

كل التسهيلات ولأفرادها الإشراف على إدارة المرافق العامة في فلسطين . وظل تيار الهجرة اليهودية يتدفق على فلسطين ، ولا سيما بعد قيام هتلر في حكم ألمانيا ، واضطهاده لليهود فيها . فبعد أن كان عدد اليهود سنة ١٩٣٤ نحو ٣٠٠.٠٠٠ ، وذلك إلى جانب سكان فلسطين العرب البالغ عددهم المليونين ، وازداد اليهود إلى ٨٠٠ ألف في السنوات التالية وظل الاستعمار البريطاني يسهل وفود المهاجرات اليهودية إلى فلسطين ويمكن لها علي حساب سكانها العرب ، دون أن يقيم للعهود وللوائيق الدولية والإنسانية أية حرمة .

وباتهاء الحرب العالمية الثانية دخلت حركة التسلل الصهيوني في مرحلة أخرى من نشاطها ، إذ نقلت مركزها من إنجلترا إلى أمريكا ، وحملت رئيسها إذ ذاك ، وهو ترومان ، على السماح بهجرة مائة ألف يهودي إلى فلسطين في الحال . وكان اختيار الصهيونية للولايات المتحدة نتيجة انتقال مركز القوة إليها عقب الحرب ، وخروج دول الاستعمار الأوربي ، ومنها إنجلترا نفسها خائرة القوى . وأخذ رأس المال اليهودي في الولايات المتحدة يغذي الصهيونية ، ويضغط على ساسة أمريكا ، حتي جعلوا منهم أدوات لخدمة تلك الحركة التسللية للعادية للقومية العربية . ولذلك

بدأ الصهاينة في فلسطين يكشفون النقاب عن وجوههم ، وبدأت
عصابتهم سلسلة إجرامية ، على نحو ما رمحه التلعود لليهود ،
من غدر وقسوة لا تعرف للقيم الإنسانية وزنا أو احتراما .
ففي ٩ أبريل سنة ١٩٤٨ ارتكبت عصابات الصهيونيين في فلسطين
مذابح تقشعر من سماعها الإنسانية ، ولم يسمع التاريخ على طول
صفحاته بمثلا ، إذ أزلوا بالعرب الأمنيين في دير ياسين مذبحه
شنيعة ذهب ضحيتها كثير من الرجال والنساء والأطفال .
واستهدفت عصابات الصهيونية من ذلك تشريد العرب سكان
البلاد الأصليين من أوطانهم ، وطرّدوا فعلا الكثير منهم .
وكأنما جاءت تلك المذابح نتيجة خطة سرية مع الاستعمار
البريطاني ، إذ أعلن في ١٥ مايو ، أى في الشهر التالي للمذبحة
السالفة الذكر ، انتهاء انتدابه على فلسطين . وجاء ذلك بمثابة
اعتراف من الاستعمار بأن عصابات الصهيونية في فلسطين قد بلغت
أشدّها ، وأنها قادرة على الوقوف في وجه القومية العربية .
غير ان الجيوش العربية جميعا بادرت بإيقاد فلسطين ، ودخلت
في معارك عديدة ضد عصابات الصهيونية ، وكادت تقضى عليها
قضاء مبرما ، لولا تدخل الاستعمار مرة أخرى لينقذ تلك الحركة
التسللية ، ويُمكّن لها ضد القومية العربية . واستطاع الاستعمار

عن طريق عملائه في البلاد العربية أن يحول بين الجيوش العربية وإيقاد فلسطين ، وبادر بالاعتراف بالصهيونية في فلسطين ، تحت اسم دولة اسرائيل .

تطويق القومية العربية

لمركز التسلل الصهيوني

قاهر الصهيونية :

ظن التحالف الصهيوني الاستعماري أنه قد آتى أكله بانتزاع فلسطين من جسد الأمة العربية ، كما اعتقد القائمون على أمره أن الجو خلا لهم للنيل من القومية العربية ، وتحقيق ما عجز عنه الأوائل من أسلافهم من قادة الحركات التسللية للعادية لتلك القومية . ولكن خاب فآل قادة هذه الحركة الجديدة ، ذلك أن جهاد الأمة العربية في مقاومة التسلل الصهيوني ، منذ طرق أبواب الشرق العربي ، وكذلك هتك دسائس الاستعمار الأوربي التي اعترفت بذلك التسلل ، لم يضع هباء . إذ أنجبت الأمة العربية في تلك المرحلة الخطيرة من تاريخها ، ابنا بارا نشأ خيرا بمتاعها ، عليا بأمثل السبل لإعلاء قوميتها ، حريصا على متابعة رسالتها في خدمة الإنسانية ورفاهيتها .

وفي شهر يناير سنة ١٩١٨ ولد منقذ القومية العربية ، ورائدها جمال عبدالناصر ، أى فى العام التالى لأول حلف قام بين الصهيونية والاستعمار ، وهو وعد بلفور .

وقد شب وترعرع وهو يسمع صيحات مواطنيه للصريين تنادى فى نوفمبر من كل عام بسقوط وعد بلفور ، الذى خلق مركزا للتسلل الصهيونى فى قلب الوطن العربى . وقد عبر عن أثر تلك الأحداث فى نفسه ، وهو فى مرحلة الشباب قائلا : « وأنا أذكر فيما يتعلق بنفسى أن طلائع الوعى العربى بدأت تأخذ طريقها إلى تفكيرى وأنا طالب فى المدرسة الثانوية ، أخرج مع زملائى فى إضراب عام فى الثانى من شهر نوفمبر من كل سنة احتجاجا على وعد بلفور الذى منحه بريطانيا لليهود ومنحهم به وطنا قوميا فى فلسطين ، اغتصبته ظلما من أصحابه الشرعيين وحين كنت أسائل نفسى فى ذلك الوقت ، لماذا أخرج فى حماسة ، ولماذا أغضب لهذه الأرض التى لم أرها ؟ لم أجد فى نفسى سوى أصداء العاطفة » .

وإذا كان جمال عبد الناصر قد تساءل وهو طالب لماذا يتحمس لفلسطين ، فسرعان ما جاء اليوم الذى تفتقت فيه عروبه الصادقة . فبعد أن تخرج من الكلية الحربية اجتاز امتحانه العربى

الأولى ، الذى شاءت الأقدار أن تعقده له على أرض فلسطين ،
التي اتخذتها الصهيونية والاستعمار مركزا للتسلل ضد القومية
العربية . ذلك أن رؤساء التحالف الصهيوني الاستعماري وضعوا
في سبتمبر سنة ١٩٤٧ قرارا بتقسيم فلسطين ، تمكينا لليهود
فيها . وعندئذ تنبه هذا القائد الملهم للخطر الذى تهدد القومية
العربية ، قبل أن تفيق الحكومات العربية في ذلك الوقت
لما يكتنف بلادها من أضرار ، وأخذ يرسم الخطوات العملية
لدفع هذا الخطر ، دون الاكتفاء بالشعارات والأقوال التي
لا طائل منها .

وشرح جمال عبدالناصر خطواته العملية لإنقاذ فلسطين من
للتحالف الصهيوني البريطاني قائلا : « وأذكر يوما ، عقب
صدور قرار بتقسيم فلسطين في شهر سبتمبر سنة ١٩٤٧ ، عقد
الضباط الأحرار اجتماعا ، واستقر رأيهم على مساعدة المقاومة في
فلسطين ، وذهبت في اليوم التالي أطرق باب الحاج أمين الحسيني
مفتي فلسطين ، وكان ما يزال يعيش في الزيتون ، وأقول له :
إنكم في حاجة إلى ضباط يقودون للعارك ، ويدربون المتطوعين ،
وفي الجيش المصري عدد كبير من الضباط يريد أن يتطوع ، وهم
تحت أمرك في أي وقت تشاء » . وافق الرئيس وزملاؤه

إذ ذاك على أن يشترك الطيارون المصريون في مساعدة عرب فلسطين ، وذلك دون خوف ، فكلهم فداءً لقوميتهم .
وعبر الرئيس جمال عن مشاعره وأحاسيس إخوانه إذ ذاك قائلاً : « ولم تكن مصر قد دخلت حرب فلسطين وكان أرجح الاحتمالات أن يحاكم كل طيار اشترك في هذه العملية ، وأذكر ان كثيرين كانوا قد رتبوا أمورهم على أن الظروف ربما تحول بينهم وبين العودة إلى الوطن قبل سنوات قد تطول .. » إن هذه المخاطرة الجريئة لم تكن حبا في المغامرة ، ولا كانت رد فعل للعاطفة في نفوسا وإنما كانت وعيا ظاهرا لإيماننا بأن رفع ليست آخر حدود بلادنا ، وأن نطابق سلامتنا يقضى علينا أن ندافع عن حدود إخواننا الذين شاءت لنا أحكام القدر أن نعيش معهم في منطقة واحدة » .

ولكن هذه الحطة العملية لم تُنفَّذ بسبب وقوع الحكومات العربية إذ ذاك تحت ضغط الاستعمار البريطاني ، ولم يُجِب للفق على طلب الضباط الأحرار بالنفي أو بالإيجاب . ثم سارت الأحداث بعد ذلك سراعا ، وانهت بدخول الجيوش العربية فلسطين ، يوم ١٥ يوليو ١٩٤٨ ، لإيقاف مذابح اليهود بالعرب الآمنين هناك . وشاءت الأقدار مرة أخرى ان تسطر لجمال عبد الناصر

فرصة الدفاع عن القومية العربية ضد حركة التسلل الصهيوني
الاستعماري ، حين تولى قيادة إحدى الفرق المصرية في هجومها
على مراكز الصهيونية في فلسطين ، وأظهر من البطولة ماخلده له
التاريخ ، وغدا طابع البطولة يسم كل أعماله وتفكيره . فكان
يتقدم جنوده في ساحة القتال ، ويأبى البقاء في المؤخرة لإصدار
الأوامر ، كما تنص على ذلك قواعد الحرب في العصر الحديث ،
وأصيب من جراء ذلك في صدره ، ولكن للقادير حفظته ليؤدي
رسالته في الدفاع عن وطنه العربي الأكبر . ثم إن هذا القائد
العربي البطل لم يرغب في البقاء في المستشفى طويلا ، وتقدم لقيادة
جنده مرة أخرى في قتال أعداء القومية العربية . وقد حوصرت
كتيبته في « عراق للنشبة » ، وهوجمت مرتين ، ووصلت قوات
الأعداء في إحدى هجماتها إلى مسافة أمتار معدودة من خندق
القائد العربي ، ولكن جمال عبد الناصر صد هجوم أعدائه ،
ونال نصراً باهراً بفضل إيمانه بمبادئ القومية العربية ، وشجاعته .
وسجل التاريخ للبطل العربي أول انتصار له على حركة التسلل
الصهيوني ، كما اعترف الصهاينة أنفسهم بذلك في كتاب أصدرته
عصاباتهم باسم « جيش إسرائيل » ، إذ جاء في ذلك الكتاب
ما نصّه : « لقد انتصرنا في جميع المعارك التي تلت الهدنة الثانية

في أكتوبر سنة ١٩٤٨ ، إلا في عراق للنشبة » ، وهي التي
خاض غمارها البطل ، الذي دفعت به المقادير لأن يكون « قاهر
الصهيونية » ، وعظم تلك الحركة التسلية ضد القومية العربية
في العصر الحديث .

بقطة القومية العربية :

منذ عاد جمال عبد الناصر من ميدان فلسطين وهو يعد المدة
الفعالة لإيقاظ القومية العربية ، وتأهيلها لصد حركة التسلل
الصهيوني ، قبل أن تنتشر سمومها إلى سائر أرجاء الوطن
العربي . وأدرك منذ اللحظة الأولى أن ذلك لن يتم إلا بتحرير
مصر ، قلب العروبة النابض ، أولاً وقبل كل شيء من فساد
أسرة محمد علي ، وأعوانها من طبقة الإقطاعيين . وفي ٢٣ يوليو
سنة ١٩٥٢ ، أي في الشهر نفسه الذي سبق للصهيونية فيه أن
غدرت بالعرب في فلسطين من سنة ١٩٤٨ ، تحررت مصر
بفضل ثورتها المباركة ، وصار قلب العروبة ينبض مرة أخرى ،
ويرسل الدم إلى سائر عروق الأمة العربية ، ويوقظها من
غفوتها . وأعلن جمال عبد الناصر عن رسالة مصر في عهد
الجميد قائلا : « ولئن نستطيع أن ننظر إلى خريطة العالم نظرة

بلهاء إلا ونذكر بها مكاتنا على هذه الخريطة ودورنا بحكم هذا المكان . . . أيمكن أن تتجاهل أن هناك دائرة عرية تحيط بنا ، وأن هذه الدائرة منا ونحن منها ، امتزج تاريخنا بتاريخها ، وارتبطت مصالحنا بمصالحها حقيقة وفعلًا وليس مجرد كلام » .
« إن ظروف التاريخ أيضاً مليئة بأدوار البطولة المجيدة ، .. ولست أدري لماذا يخيل إلي أن هذا الدور الذي أرهقه التجوال في المنطقة الواسعة الممتدة في كل مكان حولنا قد استقر به المطاف متعباً ، منهوك القوى على حدود بلادنا يشير إلينا أن نتحرك ، وأن نهض بالدور ونرتدى ملابسنا ، فإن أحداً غيرنا لا يستطيع القيام به . . . وأبادر هنا وأقول إن الدور ليس دور زطمة . . . وإنما هو دور تفاعل وتجاوب . . . ويكون من شأنه خلق قوة كبيرة في هذه المنطقة ترفع من شأن نفسها ، وتقوم بدور إيجابي في مستقبل البشر » .

وقام جمال عبد الناصر بذلك العبد خير قيام ، واستطاع أن يحفظ للعروبة هيبتها ، ولم يدع لحركة التسلسل الصهيوني أن تستفيد من الاستثمار أية فائدة قد تحقق لها الإساءة إلى القومية العربية مرة أخرى . ذلك أن الاستثمار عمد إلى تزويد عصابات الصهيونية في فلسطين بالسلاح من دون العرب حتى تحمل البلاد

العربية على أن تبقى دائماً خاضعة لمشیئة الصهيونية . وحطم الرئيس جمال عبدالناصر هذا التسلسل الصهيوني الجديد ، وشرح سياسته العملية من أجل ذلك قائلاً للعرب : « يريدون منا (أى الدول الإستعمارية) أن ننفذ السياسة التى تملى ، ولكن مصر أبت ... فمنع السلاح عنا ، وسلحت إسرائيل وأصبحت خطراً يهدد ... استطعنا بعد ذلك أن نحصل على السلاح ... فحصلت ضجة ، ما سببها ؟ ، قالوا : إن لديهم خطة ، وهى حفظ التوازن بين الدول العربية وإسرائيل ، طيارة للدول العربية وأخرى لإسرائيل لحفظ التوازن ، من الذى أقامكم أوصياء علينا لحفظ التوازن؟ نحن لانقبل وصاية أحد ، ولكنه الاحتكار للسلاح الذى كانوا يتحكمون به فینا ، فلما استطعنا تحطيم هذا الاحتكار انهارت كل خططهم » . وغدت حركة التسلسل الصهيوني محاصرة فى عقر دارها ، ولا تستطيع الانطلاق ضد القومية العربية ، التى أيقظها جمال عبدالناصر ، ووضع فى يدها سلاحاً ماضياً تدافع به عن نفسها ضد أى عدوان يقع عليها مرة أخرى ، وتسعى بفضلها فى الوقت نفسه لاسترداد فلسطين من العصابات الصهيونية .

هدم النسل الصهيوني الاستعماري :

رأى التحالف الصهيوني الاستعماري في يقظة القومية العربية خناقاً وثيقاً صار يلتف حول عنقه ، وأن الموقف يتطلب القيام بعمل سريع غادر في الوقت نفسه قبل أن تشد القومية العربية وثاق هذا الحناق وتزهق أنفاس حركته. واتجهت دسائس أعداء القومية العربية إلى مصر نفسها ، التي صارت مركز المقاومة لحركة النسل الصهيوني ، والتي كادت تقتلها في مهدها . واتخذ النسل الجديد ضد القومية العربية طابع الضغط الاقتصادي على مصر ، وذلك بمحاولتهم عرقلة مشروع السد العالي ، الذي يضع الأساس للتين لنهضة العرب ، ويدفع بهم إلى ميادين الرخاء الاقتصادي ، والتقدم الصناعي ، والمجد الحربي . فاتفقت الصهيونية مع الاستعمار على رفض تقديم أية معونة اقتصادية لمصر في تحقيق هذا المشروع الحيوي ، إلا إذا تخلت عن رسالتها في إيقاظ الأمة العربية ، والإعلاء من شأن قوميتها . ورفضت مصر ذلك الضغط في إباء عربي ، وأعلنت تأميم قناة السويس ، وأعادت للعرب مورداً سلبه منهم الاستعمار ، وكرست موارده لبناء السد العالي وجاء تأميم قناة السويس نصراً باهراً للقومية العربية

لم يكن يتوقعه دعاة التسلسل الصهيوني الاستعماري، وخيب آمالهم .
ولذا اتفقت الصهيونية ومعها الاستثمار الانجليزي والفرنسي
على القيام بحركة تسلسل كبرى ضد مصر ، وحرمانها من القوة
الحرية التي وصلت إليها ، ممثلة في جيشها العربي القوي ، للذود
بأحدث الأسلحة والتدريبات العالية . وكانت خطة هذا التسلسل
الخطير ، هي أن تبدأ العصابات الصهيونية بالهجوم على مصر
في ٢٩ أكتوبر (سنة ١٩٥٦) ، وذلك بغية استدراج الجيش
المصري العربي إلى شبه جزيرة سيناء وما تلاها من أرض فلسطين،
حتى إذا ما ابتعدت القوات المصرية عن قاعدة قناة السويس ،
وانشغلت بمطاردة العصابات الصهيونية تبدأ حركة التسلسل الثانية ،
وذلك بأن تبعث كل من الدولتين الاستعماريتين ، إنجلترا وفرنسا
بجيوشهما لاحتلال منطقة قناة السويس ، بحجة الحيلولة بين
القوات المصرية والعصابات الصهيونية . ولكن لم تكد تلك
الحركة التسلسلية تمتد إلى أرض مصر حتى هبَّ الشعب المصري
هبة الأسد المصور ، وانطلق يمزق قوى الغدر ، علي حين انطلقت
القومية العربية في كل مكان ، تقطع عن قوى الشر البترول ،
وغير ذلك من سائر اللعونات الاقتصادية . وبذلك استطاعت
القومية العربية القضاء على هذا التسلسل الغادر وهو ما زال في
دور الرضاع .

وانسحبت جيوش الاستعمار من بور سعيد تجر وراءها
اذيال الحمية والفضيحة العالمية ، علي حين هربت العصابات
الصهيونية من رمال سيناء ، بعد أن لطخت سمعتها بالعار والحزى
وأثبتت للعالم ، في صورة لا تقبل الشك ، أن الصهيونية ما زالت
ريبة التلعود ، والقائمة علي تعاليمه الفاسدة . واكتسبت القومية
العريية من هذا الانتصار روحا جديدة عبّر عنها الرئيس جمال
عبد الناصر غداة النصر قائلاً : « دخلنا للمعركة وكانت القومية
العريية كلاما . . . وخرجنا منها وقد أصبحت عملا حقيقيا . . .
إن القومية العريية هي الهدف ، هي الغرض ، هي هدف الاستعمار
إن القومية العريية لم تكن كلاما يقال ، بل أصبحت عملا فعلا ،
والعرب تعاونوا ، نسفوا أنابيب البترول ، وعرضوا أنفسهم
للخسارة ، ولكنها ضربة قاضية للأعداء وكسب للقومية العريية »
وهكذا تم تطويق حركة التسلل الصهيوني مرة أخرى ،
وأخذ قادتها يولولون ويصرخون ، لأنهم يدركون أن ساعة
الحساب آتية لأريب فيها ، يوم لا ينفعهم تسلل أو استعمار ، يوم
تزلزل بهم الأرض ، وتطبق عليهم القومية العريية من كل مكان .
إن يوم عودة العرب إلى وطنهم فلسطين قريب ، لأن كل عربي
في شق أنحاء الوطن الكبير صار يعرف مكانه في الدفاع

عن قوميته ، ويفهم جوهرها السليم على نحو ما شرح قاهر
الصهيونية ، جمال عبد الناصر للوفود العربية التي جاءت تهنيء
بالانتصار على قوى التسليح ، فقال :

« ليست القومية العربية رجلا واحداً ، أو فردا واحدا ،
ليست القومية العربية من وحي رجل واحد أو من وحي فرد
واحد ، ولكنها من وحيكم أتم ، ومن وحي آبائكم ، ومن وحي
أولئك الذين استشهدوا في سبيل هذه الأيام التي نعيشها لنرى
فيها الأمة العربية وهي تتحرر ، وهي تصمم على الاستقلال ،
وتصمم على الانتصار » .

المكتبة الثقافية

مكتبة جامعة لكل أنواع المعرفة

فاحرص على ما فاتك منها ...

واطلب من :

١ - دار القلم ١٨ شارع سوق التوفيقية بالقاهرة

٢ - مكاتب شركة توزيع الأخبار في الإقليم المصرى

٣ - وكلاء الشركة القومية في جميع البلاد العربية

٤ - مكتبة المتى بغداد - العراق

٥ - الشركة القومية للنشر والتوزيع تونس

٦ - مكتبة النخوة أم درمان - السودان

مطابع دار القلم بالقاهرة

المكتبة الثقافية

● أول مجموعة من نوعها تحقق اشتراكية الثقافة .

● تيسر لكل قارئ أن يقيم في بيته مكتبة جامعة تحوى جميع ألوان المعرفة بإقلام أساتذة متخصصين وبقرشين لكل كتاب .
● تصدر مرتين كل شهر . في أوله وفي منتصفه

الكتاب القادم

الفلك والحياة

الدكتور عبد الحميد سماحة
الدكتور عبد لى سلامة

١٥ ديسمبر ١٩٦١